خَالد محَمَّد خَالد

عشرة أيام
فى حياة الرسول



الطبعة الخامسة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ ـ يوليو ٢٠٠٤م

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين ـ القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

مقدمـــــة

ثلاثة وستون عامًا، عاشها صاحبها العظيم فى جلال يبهر الألباب.

ومن يوم مولده، إلى يوم مماته. وحياتُه الطاهرة تتشكّل فى أحسن تقويم، وتتألق بخصال فَطَرها على الكمال خلاقها الأعلى؛ لتكون للأحياء قدوة، وللحياة نورًا..

وهو مذ أهلَّ على الحياة فوق هذه الأرض، وكل قوى الحياة ومظاهرها فى خِضَمٍّ التغيير.. فلم يكن ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ مجرد إنسان يجىء إلى الدنيا فى زحام الوافدين عليها كل صباح ومساء.. بل كان "قوة طبيعية" جاءت تسيطر على الزمان والمكان، وتعيد تشكيل الناس وتشكيل الحياة!!

بل كان أكبر من ذلك.. كان "قوة إلهية" جاءت لترد الروح الإنسانى إلى مدارِه الأول حول الله الحق الذى خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

ولأنَّ الله اصطفاه لنفسه ولرسالته؛ فلا عجب إذن أن جاءت حياته، وأن كانت أيامه مثالاً بالغ الكمال فى التُّقى، والطهر، والجلال!!

ولقد كانت هذه الحياة، ولا تزال، كتابًا مفتوحًا ومقروءًا.

وفى تاريخ البشرية كلها، بكافة روادها وصفوتها وقادتها، لا نكاد نعرف حياة نُقلت إلينا أنباؤها، وحفظت لنا وقائعها فى وضوح كامل، وتفصيل عميم شامل، كما حُفِظَتْ وكما نُقِلت حياة محمد [محمد بن عبد الله] رسول الله رب العالمين.

ورحمته المهداة إلى البشر أجمعين..!!!

فكل كلمة قالها.. كل خطوة مشاها.. كل بسمة تألَّقَتْ على مُحيَّاه.. كل دمعة تحدَّرتْ من مآقيه.. كل نَفَسٍ تردد فيه بحمد الله وتكبيره.. كل مسمعى ساره مع مقاديره.. كل مشاهد حياته، حتى ما كان منها من خاصَّة أمره وأسرار بيته وأهله.. كل ذلك نُقل إلينا بحروف كبار، مُوَثَّقًا بأصدق وأعرق ما عرف التاريخ الإنسانى من وسائل وبينات..!

ولقد رحل عن دنيانا إلى الرفيق الأعلى، من قُرابة ألف وأربعمائة عام. ومع هذا فنحن إذ نقرأ سيرته وتاريخه اليوم، لا نحسُّ أننا نقرأ عنه.. بل لكأننا نسمعه ونراه ونعيش بأنْفُسٍ مبهورة، نَفسَ المشاهد التى نطالعها مكتوبة ومسطورة.!

ولا عجب فى هذا أيضًا.. فما دام الله قد اختاره ليختم به النبوة والأنبياء، فإن من الطبيعى - وحياته ستكون نهجًا ودليلاً لأجيال لا منتهى لأعدادها - أن تكون هذه الحياة بكل تفاصيلها أشد وضوحًا وألقًا من فلق الصبح ورائعة النهار، لا بالنسبة لعصره فحسب، بل وبالنسبة لكل العصور وكل الأجيال التى ستجد فى تلك الحياة المباركة نورها وهُداها..!! ومن هذه الحياة الطاهرة، الناضرة،

الممتلئة، تحاول صفحات هـذا الكتـاب أن تجـتزئ بضعـة أيـام تقـف عندها ونتلبَّث معها، ونحيا في دائرة ضوئها وقتًا مباركًا تفيء علينا فيه من أسرارها وعطاياها.

أجل.. من بين أيام حياته العظيمة البارة التى كانت جميعها سـواء فى العناء والجهد.. وفى السمو والمجد.. نختار هـذه الأيـام العشـرة؛ لنرى خلال مشاهدها المفعمة بـالتركيز بعـض خصـائص ذلـك التفـوق المقتدر الذى حبا الله به شخصية رسوله، عليه وعلى آله وصحبه أفضـل الصلاة وأزكى السلام. ونحن إذ نخصُّها بالاختيار: لا يعنـى ذلـك أننـا نضع حياة الرسول موضع المفاضلة والانتقاء.. فحياته كلها بكل أيامها ولحظاتها سواء فيما أعطت من جهد. وسواء فيما أدركـت مـن سـمو، وسواء فيما غمرها الله به من نعمة وفضل وكمال.. إنما يعنـى اختيارنـا هذه الأيام أننا وجدنا فيها مُدْخَلاً رحبًا لتلك الحياة الشـاهقة العميقـة العظيمة.. مُدْخَلاً يفضى بنا إلى الكثير منْ أسرارها المضيئة، ويجمعنا على الكثير من خصائصها المتفوقة، وشمائلها المتأنقة، وعطائها الذى لا يتقاصرُ أبدًا ولا يغيض!!!

وطبيعى أننا لا نعنى باليوم هنا، الوحدة الزمنية المتمثلة فـى أربـع وعشرين ساعة، وإن طابق ذلك أكثر الأيام التى اخترناها.. إنمـا نعنـى باليوم ـ الظـرف التـاريخي للمناسـبة أو الواقعـة التـى تشـد انتباهنـا وإصغاءنا. سواء تمثَّل هذا الظَّرف في يوم واحد، أو تمثـل فـى بضعـة أيام؛ فالوعاء الزمنى للموقف المختار هو اليـوم الـذى نتابع أحداثـه الجليلة مطالعين من خلالها وخلاله أروع مـا عـرف البشـر مـن جـلال النُّسُك، وعظمة القصد، واستقامة السبيل.

والآن، نستطيع أن نقترب فى خشوع وغبطة..

خشوع من يدركون جلال المناسبة وما يبتعثه لقاؤها من تهيُّب وحياء..

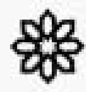
غبطة من يتوقعون المغانم الجزيلة، التى ستظفر بها الروح فى هذا اللقاء..!!!

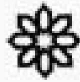
خالد محمد خالد

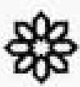
(١)

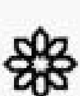
يوم التحكيم

﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وأَنْتَ فِيهِم ﴾











كان هذا اليوم قبل الرسالة بخمسة أعوام..

وعلى الرغم من أننا آثرنا أن تكون الأيام التى أخذناها لموضوع هذا الكتاب، من الفترة التالية لبدء الوحى والواقعة فى سنوات النبوة والرسالة.. فإنه لم يكن ثمَّة بُدّ من مجاوزة القاعدة التى وضعناها، تجاه هذا اليوم الفريد!!

إنه اليوم الوحيد بين الأيام العشرة، نختاره من سنوات ما قبل الوحى، سنوات التهيؤ والإعداد.

وما كان لموضوع كهذا الذى نحن بسبيله أن يبلغ تمامه دون أن تُمثَّل فيه فترة التهيؤ والإعداد ببضعة أيام. وما أكثر الأيام الماجدة العظيمة التى تزخر بها حياة الرسول قبل أن يناديه الوحى، ويشرق عليه يوم الاصطفاء.

بيَد أنَّ المجال القريب لبحثنا هذا لم يُتح لنا أن نستطرد مع روائع تلكم الأيام. فاخترنا ذلك اليوم الذى يمثل أصدق تمثيل فترة ما قبل الوحى بكل خصائصها، ومزاياها، وإرهاصاتها.!

إنه يوم قوى النَّبض، باهر السَّمْت، بالغ الدلالة..!!

وإنه لينهض شامخًا لألاءً فوق قمة فترةٍ من الحياة ماضية.. وفترة

أخرى آتية.. فيعلمنا بصوت مسموع تفسير الآية الكريمة القائلة:

﴿ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته ﴾ ..!!

أجَلْ.. سيكشف لنا هذا اليوم، بل ستكشف لنا ساعة واحدة من ساعات ذلك اليوم كل ما زخرت به الأربعون عامًا التى سبقت بدء الوحى والرسالة من أمانة وطهر واستقامة وعظمة.. كما ستصدح دقاتها بأعظم إرهاصات المصير الإنسانى، متمثلاً هذا الإرهاص فى الإيماءة الصادقة إلى الرجل الذى سيحمل تبعات الغد تجاه الناس أجمعين والذى سيحمل كلمة الله للعالم فى نبوة راشدة، وحنيفيَّة سمحة واعِدة والذى سيكون رحمة مهداة وحُجَّة قائمة..!!

***

وليبدأ حديثنا عن يوم التحكيم هذا، بعرض صورته التاريخية: فقبل بزوغ الإسلام بسنوات خمس، والرسول ﷺ فى الخامسة والثلاثين من عمره المبارك، لم يأته الوحى بعد، وروحه تغذُّ السير فى بحثها عن الحق وعن الحقيقة ـ أجمعت قريش أمرها لبناء الكعبة أقدس ما ورثوا وما عرفوا.. كانت الكعبة يومذاك رضمًا من الحجارة المرصوصة بغير مِلاط يمسكها ويزينها، بل وبغير سقف مرفوع.

والآن وقريش تريد أن ترتفع ببنائها وتُضفى عليها من العمارة ما يليق بولائهم لها، فقد تواصوا على أن يخصّوها بأطيب ما يكسبون. لقد وقف فيهم (أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم) وهو خال والد الرسول ﷺ، وقف يقول لهم:

"يا معشر قريش..

"لا تُدخلوا فى بنائها من كَسْبكم إلا طيبًا..

" لا تُدخلـوا فيـها مـهر بَغِـيّ، ولا بيـع ربـا ، ولا مظلمـة أحـد مـن الناس . "

ونهضت قريش بالعمل، جامعة له ما يحتـاج مـن حجـارة، ومـلاط، وأخشاب، ولكي يكون شرف القُربى وثوابها من نصيب القبـائل جميعًـا قسموا أركانها على القبائل، حيث تشترك في كل جانب منها أكثر مـن قبيلة.

ونهضوا يبنون، حتى أفضى البناء إلى موضع الركـن، حيـث يقـوم "الحجر الأسود" رامزًا في جلال مهيب لِكَدْح "إبراهيم وإسماعيل" في سبيل الله والدين.

فَمَنْ، مِن الناس أو من القبائل سيذهب بشرف رفع الحجـر ووضعـه في مُتكئِه ومكانه..؟؟

ذاك شرف، ليس في وسع قبيلة ما ، أن تدعه يفلت منـــها إلـى قبيلـة أخرى سواها ، ولو اقتضى الأمر انتضاء السيوف وملاقاة الحتوف.

ولقد طال بينهم اللجاج والخلاف، ثم احتـدم الخصـام وتسعَّرت المغايظ، وغشَّاهم نذير حرب أهلية طاحنة، حين جاء بنـو عبـد الـدار بجفنة مملوءة دمًا ، ثم ألقوا هم وبنو عـدِي أيديـهم فـي تلـك الجفنـة، متعاهدين معًا على الموت في سبيل ألاَّ يفوتـهم ذلـك الشـرف العظيـم والقربى الجليلة.

بقيت قريش في ذلك التوتر المنذر بالسوء خمسة أيام.. وفي اليـوم السادس، وقد غصّ المسجد الحرام بجموعـهم المتربصـة والمتحفـزة، أشار عليهم واحد من شيوخهم أن يُحكِّموا بينهم فيما هم فيه مختلفـون أوَّلَ داخل عليهم وتواثقوا جميعًا على قبول هذه المشورة.

وجلسوا جماعات وحلقًا يغشاهم قلق.. وعيونهم شاخصة نحو الباب تترقّب..!!

ترى من هذا الذى ستختاره الأقدار ليجمع الشمل ويَرأبَ الصَّدع، ويهدى للتى هى أقوم..؟؟

ها هو ذا يبزغ فجأة، فى لحظة من أكثر لحظات الحياة امتلاءً بالتهلُّل والبشرى، ولا يكاد القوم يبصرونه حتى ترتفع أصواتهم بكلمات، كأنهم وإياها على موعد.

[هذا الأمينُ، رَضِينا ..]

[هذا، محمد ..!!!]

ويتقدم "محمد" عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.. يتقدم ليعرف: ما الخبر؟ حتى إذا تبينه، حنى رأسه فى خشوع شاكرًا لربه اصطفاءه إياه لهذه المهمة الجليلة.. ولم يبحث عن الحلّ، فقد كان إلهامه وكانت بديهته مُهيَّأين دائمًا للعمل القويم الناجز حين تعمى السُّبُل على الآخرين.

وبسط نحوهم يديه قائلاً:

[هَلُمَّ إلىَّ ثوبا]

وأسرعوا إليه بثوب بسطه الرسول، ثم وضع الحجر فى وسطه ونادى الجموع المتحفزة آمرًا إياها أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب حتى إذا فعلوا، طلب إليهم أن يرفعوه جميعًا إلى أعلى، وحين بلغوا مكانه المرموق أخذ الرسول الحجر بكلتا يديه وثبَّته فى مقامه. وواصلت قريش عملية البناء..!!!

***

كان هذا اليوم، يوم الإرهاص العظيم.. واليوم الذى بدأت السماء فيه - وربما لأول مرة - تضع مُصطفاها ومختارها داخل دائرة الضوء الواسعة الرحيبة، وتقدمه داخل دوره المنتظر بأسلوب رامز، ريثما تقدمه فى الغد القريب جهاراً علنًا..

صحيح أن حياته السالفة كانت ممتلئة بالإيماءات المسفرة لدوره المرتقب.

ومنذ وُلد - عليه الصلاة والسلام - والإرهاصات بشأنه وبدوره تتوالى في مشاهد تبهر الألباب.. عندما كان فى ديار بنى سعد مع مرضعته "حليمة".. وعندما كان طفلاً ينأى عن اللهو مع أترابه ولِداتِه، يقول:

[أنا لم أُخلَق لهذا] ..!!

ثم حين صار شابًا، تُجمع قريش على نعته بالأمين، وتضفى عليه من احترامها وإجلالها إجماعًا لم يظفر بمثله سواه.. وحين بَهَر "بحير الراهب" الذى وقف أمام مخايل النبوة المستكنة فى أعماقه جذلان مبهوراً، يهز أبا طالب بكلتا يديه ويصيح به:

[ارجع بابن أخيك هذا إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبغُنَّه شراً.. وإنه لكائن لابن أخيك هذا شان عظيم]

ثم حين اهتدى بفطرته النقية وبصيرته الذكية إلى ما فى وثنيات قومه من ضلال فعزف عنها ورفضها، ولم يحن جبهته العالية لصنم ولا وثن، وراح يبحث عن دين إبراهيم، ملتمسًا العون والهدى من رب العالمين.

نقول: صحيح أن حياته كلها قبل النبوة وقبل يوم التحكيم هذا كانت موكبًا من الإرهاصات الصادقة المبينة.. بيد أن ليوم التحكيم مزيةً ينفرد بها عن بقية الأيام؛ فالإرهاص فيه متكامل ومباشر بدور المنقذ، ودور الرسول.. المنقذ الذى سيكون على يديه خلاص العالم من ظلماته الماحقة، والرسول الذى لن يجىء به إلى منصة القيادة اختيار الناس، بل اصطفاء السماء..

فأما عن "المنقذ"، فها هو ذا يحسم ببصيرته المضاءة بنور الله نزاعًا محتدمًا كان على وشك أن يتحول إلى حرب أهلية تحمل كل ضراوة الجاهلية، ويأس القبلية..

وأما عن "الرسول" فها هو ذا فى يوم التحكيم لا يجىء به الناس. بل يجىء به القدر العظيم.

ألم تتفق قبائل قريش على تحكيم أول قادم.. فمن الذى اختار هذا القادم..؟

أهى قريش.. كلا ولا أحد من الناس.. إنما اختارته المقادير!! وكان "محمد الأمين" هو الرجل المختار.. وهذا الذى حدث يوم التحكيم مَثَّل إرهاصًا وثيقًا بالمستقبل القريب لهذا الرجل.. إن قوة أعلى من قوة البشر ستصطفيه وتختاره لمهام أجل وأعظم، مثلما اختارته اليوم لمهمة التحكيم.

هذا هو الرمز الحىّ والذكىّ ليوم التحكيم. وهذه قيمته الثمينة كيوم خالد فى حياة الرسول.

ولا تقف دلالة الرمز، وجلال القيمة عند هذا المعنى الذى ذكرناه، بل تمتدّ إلى الأسلوب الذى عالج به الرسول الموقف حيث يُشكّل هو

الآخر إرهاصًا مُبينًا بالمنهج الذى سيمارس بـه النبـى دوره غـدًا علـى مسرح الحياة.

إن الرجل الذى أخرج قريشًا من حيرتها يوم التحكيم، سـيقدَّر لـه فى غد أن يخرج العالم كله من حيرتـه وضلالـه، مُرسلاً إليـه مـن رب العالمين.

والطريقة التى بدَّد بها حيرة قريش اليوم وعالج بها محنتها ، ترهـص فى وضوح بالمنهج الذى سيتوسل به غدًا لتبديد حيرة العـالم وظلُماتـه فماذا كان جوهر تلك الطريقة، لنرى من خلالها جوهر هذا المنـهج..؟ إنه "التوفيق" ..

أجل.. لقد كان أسلوب الرسول يـوم التحكيـم أسـلوبًا "توفيقيًـا" وفق به فى براعة فائقة بين الاتجاهات المتنابذة، وأحلَّ به مكـان النفـرة والتمزّق وحدة متعاضدة حققت لنفسها الخير من أقرب طريق.

وهكذا سيكون لُباب منهجه عندما يُوحى إليه، ويحمـل رسـالة الله إلى الناس.

سيكون أبرز خصائص هذا المنهج أنه "توفيقى" يمثل الأمر الوسط ويتوخى الاعتدال والقَصد.. والناس الذين يتفرقون شيعًا بحجة التشيّع للحق، سيكشف هو لهم التخوم المشتركة بينهم جميعًا ليجتمعوا فوقها ويبلغوا منها وبها مطالع الحق.

وكأنما القرآن الكريم يعبر عن هذا المنهج "التوفيقى" حين يقول: ﴿وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا﴾

وهو منهج يتسق مع طبيعة الرسـول وفطرتـه، فلقـد كـان القصـد لا العُنف، سبيله دائمًا إلى استجلاء الحق وإقراره.

تقول زوجه عائشة رضى الله عنها :

[ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين، إلا اختار أيْسرهما مالم يكن إثمًا]

ولسوف نرى العمل التوفيقى للرسول يبرز فى وضوح وقوة خلال مساعيه لإذابة الجليد بين أصحاب الديانات السماوية؛ حتى يلتقوا جميعًا حول الحق.

وإن القرآن الكريم ليزكى هذا المنهج التوفيقى، كما يبين فى نفس الوقت مفهومه الصحيح فيقول مناديًا الرسول عليه السلام:

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاَّ نعبد إلا الله، ولا نُشركَ به شيئًا ، ولا يتَّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ﴾.

فدعوة أهل الكتاب إلى "كلمة سواء" محاولة عظمى للتوفيق بين الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا..

وربطُ "الكلمة السَّواء" بجوهر الحقيقة الدينية، وهو عبادة الله وحده، ونبْذُ كل مظاهر الإشراك به.. ربْطُها بهذا الجوهر يكشف صفة هذا المنهج التوفيقى..

إنه ليس منهجًا "تبريريًا" ولا منهجًا "نَفْعِيًا" بل هو منهج يعمل فى خدمة الحق وحده، ومن أجل سيادة الحق وحده.

إنه تجميع حول الحق، لا ضِدّ الحق. وحين تتناوله يد أستاذ فى فن التجميع والمؤاخاة، مثلما كان رسول الله ﷺ، فإن آثاره العظيمة تجاوز آنئذ كل تصورات الفوز وأحلام النجاح.

ولقد كان "ابن عبد الله" عليه صلاة الله وسلامه أستاذ هذا الفن

العظيم، ذلك أنه كان تعبيرًا عن طبيعته الطيبة وتكوينه الودود.

لقد وصفه الذين عاصروه وصَحبوه فقالوا:

[.. أجود الناس كفًا، وأشجعهم قلبًا، وأصدقهم لهجة، وأليَنُهم عَريكة، وأكرمهم عشرة].

[من رآه بديهة هَابَه، ومن خالطه معرفة أحَبَّه، يقول ناعِتهُ: لم أرَ قبله مثله، ولا بعدَه]..!!

فهذا الذى هو [ألين الناس عريكة، وأكرمهم عشرة]..

هذا الذى تبعث بَداهَتُه الهيْبة، وتُفجِّر مخالطته المحبَّة..

هذا الذى لم ينتقم لنفسه من شيء ولا من أحد أبدًا..

هل يستطيع أن يكون إلا داعية وفاق وإخاء ومحبة..؟!

***

تُرى ماذا كانت ردود الفعل لَدَى قبائل قريش يوم التحكيم عندما رات المقادير تضع أمامها وفوقها جميعًا هذا الأمين "محمدًا" ليكون بطل الموقف.. يحسم النزاع المتسعِّر فى لحظة، وبأسلوب تناهى يُسرًا، وحكمة، وذكاء..؟!

إنه نجاح يشد زناد الحسد فى النفوس المتطلعة.. وما أكثر هذه النفوس يومئذ، وما أسرع استجابتها للحسد الضارى فى عالم القبائل القائم على التفاخر والزهو والاستعلاء.

ومع هذا - وتلك عجيبة أخرى من عجائب يوم التحكيم - لم يَنِدَّ عن تلك الأنفس بَصِيص حَسَد.. لقد رأوا جميعًا فى النجاح الذى أحرزه "الأمين محمد" نجاحًا لهم ومَجدًا لهم وفخارًا.. وخلال السنوات الخمس التى تلت يوم التحكيم إلى أن بدأ الوحى، واختير

الأمين للرسالة، ومكانة "الأمين" فى قومه تزداد سنى ورفعة، ونفوذا..

فما سر هذه الظاهرة التى تبدو وكأنها ضد طبائع الأشياء..؟!

كيف ظل أربعين عاما بين قوم تتلمظ فيهم مشافر الحسد والتنافس دوما، دون أن تبدو بادرة حسد ضد ما تتمتع به شخصيته الجليلة من نباهة الذكر وجلال القدر؟.

كيف حدث هذا مع رؤية قريش له، وهو يعزف عن أصنامها فلا يشارك قط فى عبادتها، بل ولا فى احترامها.؟!

لكأن الله سبحانه قد وضع قريشا أمام هذه الحقيقة، لتكون أبلغ حجة عليها حين تناوئ رسوله يوم يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، ونبذ ما هم فيه غارقون من وثنية وجاهلية وضلال..!!

ولقد واجهت قريش المأزق الوبيل واصطلت بناره فعلا، حين وقفت ضد الرسول والرسالة.. سقط فى أيديهم، ولعثم الخبال أحلامهم..!!

ولقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن أن يتنكروا للأربعين عاما التى عاشها "محمد"، بينهم، تبهرهم منه كل يوم عظمة فضائله وتكامل شمائله.. وعاجزين عن تناسى الحب والاحترام اللذين أضفوهما عليه طوال الأعوام الأربعين.. وتلفتوا صوب ذلك اليوم القريب - يوم التحكيم - إذ قبائل قريش فى المسجد الحرام تلعق الدم من الجفان تحفزا للقتال، وفجأة يهل عليهم "الأمين محمد" فيصيحون كالغرقى أدركتهم زوارق النجاة:

[هذا الأمين، رضينا]..!!!

تلفتوا صوب ذلك اليوم، فتغشتهم الحيرة والتساؤل .

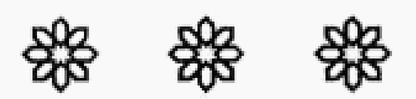
أما الراشدون منهم، فأدركوا أن ذلــك اليـوم كـان إرهاصًـا ليـوم الوحى العظيم، ومن ثَمَّ سارعوا إلى النبى مُصدِّقين ومؤمنين.

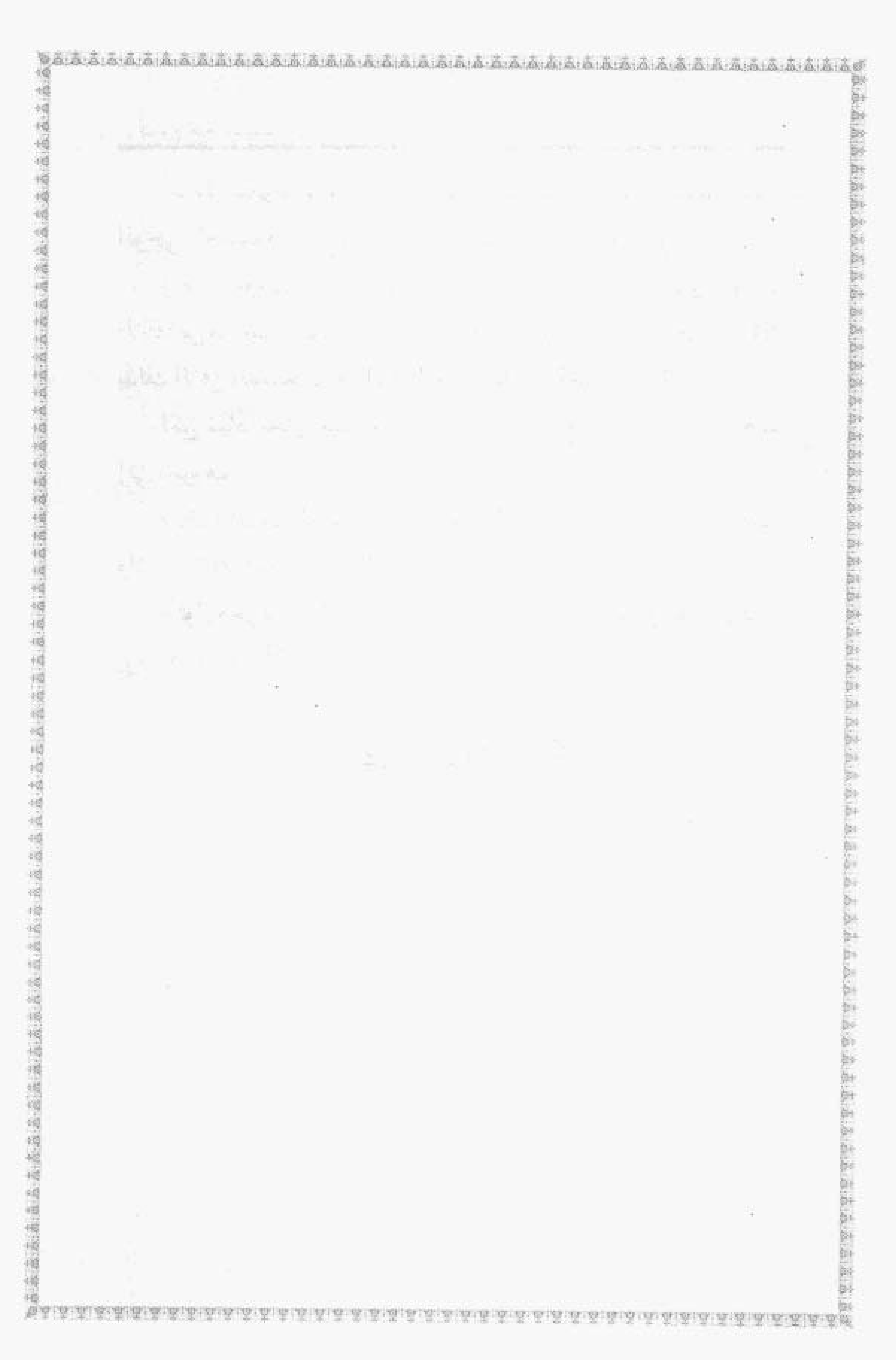
وأما الغاوون، فــلا يجـدون حيلـة ولا يـهتدون سـبيلاً، ويؤودهـم الانتقاص من حياة تتحدَّى كل مغمز، فلا تسعفهم قرائحهم العـاجزة إلا بذلك الأفن المضحك إذ قالوا: لقد أصابه من الجن مسّ.!!!

لكن شَبَاةَ الحق تُجيد توجيه الوخز الموجـع إليـهم، رَادَّةً كيدهـم إلى نحورهم..

ويتقدم الوحى لكشف زيفهم ومحق باطلـهم، فـلا يتكلمـون ببادئـة ولا عائدة إلا ابتدرهم من الوحى حُجة وسلطان.!!

فَلْنُوَلِّ وجوهنا ـ الآن ـ شَطر ذلك اليوم الأول من أيام الوحى، فإنه يوم باهر ومثير..!!!





(٢)

يوم الوحى

﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمْ ﴾



هذه مكة تموج بالمسرات والمباهج.. وأهلها، أولئك العرب الذين جعلتهم الصحراء والتقاليد جبابرة وأقيالاً فارهين، منطلقون وراء أمجادهم يغنون ويمرحون.. لا قيود تمسكهم، ولا سدود تذودهم.. الحياة كلها مهرجان عريض دائم، وهم فيه أبطال حلبته المبرِّزون..!!

قوافل تجارتهم لا تكف عن السّرى والمسير.. وأسواقهم المفعمة بمباريات الشعر ومبارزات الرياضة، لا تنفضُّ فى مكان إلا لترفع أعلامها فى مكان سواه..

وشوارع مكة تعجّ بشبابها المعطَّر النشوان الذى لا تخبو قط أشواقه إلى الشهوة واللذاذات..!!

ودار الندوة مثل خلايا النحل، تموج بزعماء العشائر والقبائل، شيبًا وشبابًا.

ومجاثم الأصنام حول الكعبة، وفى أفناء مكة وخارجها زاخرة بالوافدين يهتفون لـ "اللاتِ، والعزَّى، وهُبَل".

وأفراد قلائل، بل لنقل: نادرون، يعبرون ذات الشوارع ويرتقون ذُرَى الجبال صامِّين آذانهم عن لَغو قريش، باحثين عن الحقيقة مستشرفين رُؤاها من بعيد.. وبعيد..!! أولئك هم "الحنفاء" يؤمنون أن

وراء آلهة قريش وأوثانها حقيقة هى الحق المبين.. وإله واحد أحد، هو رب العالمين.. ولكن كيف السبيل إلى معرفته ومعرفة ما يتقربون به إليه من طاعة ونُسُك..؟

ويرحلون عن الدنيا، واحداً إثْرَ واحد، دون أن يصلوا أو يخبروا الناس عن الحق الذى قضوا أعمارهم عنه باحثين!!

***

وتعلو أصوات الزحام.. زحام الحياة بكل ترفها واستهتارها، وأيضًا بكل جدّها ونشاطها.. وتمضى الأيام فى مكّة هادرة صاخبة، مثقلة بفجورها وتقواها.. وما أندر تقواها..!!

وبعيداً عن ذلك الزحام، كانت روح تقية، نقية، وَرِعَة متسامية، تستشرف الحق وتكدح فى سبيله روح إنسان فطره الله على كل ما هو فاضل وكامل وعظيم.

فى أناةٍ، كان يتأمّل.. وفى فِطنة، كان يتفحّص.. وفى طهر، كان يحيا.. وفى تقوى، كان يتعبّد.

ولكن، إلى من يتجه بعبادته وتقواه..؟!

إلى الله، لا ريب..

وأنّى له معرفة الله فى بلد لا مكان فيه لغير تلكم الآلهة المبثوثة هنا وهناك، ولا صدى فى ضمائر أهلها إلا لما لهذه الأوثان من قداسَة وأنباء..؟؟

ألا إن رؤية الحقيقة من خلال ذلك الضباب الكثيف المتراكم لأمرٌ يسير على من وطّن نفسه ونذر حياته لاستجلائها.

فإذا كانت مكة يومئذ بلاد الأوثان، فقد كانت قبلئذ وطن الحنيفية

السمحة التى هتف بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وليس عسيرًا على من يعطى أصنامها ظهره، أن يطالع ولو بعد حين رُؤى الحق تنداح عنها مشارف تاريخ بعيد ومجيد..

وهذا ما صنعه الأمين "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم".

إنه يدرك عن طريق فكره صلة النسب التى تربطه بخليل الله إبراهيم.. هذه الصلة التى سيعبر عنها فيما بعد أصدق تعبير فيقول:

"إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل"

"واصطفى من ولد إسماعيل كنانة"

"واصطفى من بنى كنانة، قريشًا"

"واصطفى من قريش، بنى هاشم"

"واصطفانى من بنى هاشم"

"فأنا خِيار، من خيار، من خيار"

كذلك يدرك عن طريق روحه حاجته، وحاجة قومه، بل وحاجة البشرية كلها إلى دعوة إبراهيم من جديد.. تلك الدعوة التى ترتفع بالناس إلى أعلى مستويات الوجود حين تجمعهم حول الله ربهم وخالقهم، وحين تقف بهم بين يديه وحده، لا يرجون ولا يخافون سواه..

وهكذا أعطى ظهره لأصنام قومه، واستدبر كل ما تموج به مكة من صخب ولهو وفتون، وراح فوق رمالها اللاهبة وصحرائها الصارمة، وجبالها المتحدية يتتبع فى مثابرة ودأب وهُيام أقدام أبيه "إبراهيم"، ويتنسَّم عبير روحه، ويضرع إلى الله فى إخباتٍ وتبتُّل أن يهديه إلى تُراث ذلك الأب الجليل والرسول الخليل، وأن يهيئه لحمل رايته

وشُعلته..!!

***

كانت النبوءات برسول يخرج في هذه الأمة، تملأ الزمان والمكان. ولعله حين كان يستعيد ذكريات طفولته وشبابه، يغمره الحنين إلى أن يكون هو مَجْلَى تلك النبوءات:

- ألم يكن هو "الرضيع" الذي أعرض عنه النسوة السَّعديات اللائي جئن "مكة" يلتمسن الرضعاء، فصرفهن عنه يُتْمه.. حتى إذا لم تجد "حليمة السعدية" سواه حملته مستعينة بالله، ولا تكاد تبدأ رحلة عودتها إلى ديارها حتى تنطلق أتانها العرجاء كأنها الريح.. وحتى تدرّ شارفُها العجفاء فيحلبون منها غبوقًا وصبوحًا، وما كانت من قبل تدر قطرة لبن واحدة.. ثم لا تكاد تبلغ ديار قومها ويثوى الرضيع اليتيم بينهم حتى تتوالى بركاته وآياته..؟؟

- ألم يكن هو "الطفل" الذى حملته "حليمة" مرضعته إلى عراف من هذيل تعود الناس أن يذهبوا إليه بأطفالهم ليتنبأ لهم، فلم يكد يراه ويتفرس ملامح وجهه المضيء حتى صاح: [يا معشر هُذيْل.. يا معشر العرب.. اقتلوا هذا الصبي، فوحق الآلهة ليهدمنَّ دينكم، وليحطمن أصنامكم، وليظهرن أمره عليكم].. واختطفته حليمة من بين يديه وفرّت به مذعورة مبهورة.

- وأليس هو الذى افتقدته "حليمة" يومًا في ظهيرةٍ حرُّها شديد وبعد طول بحث وسعى ألفته نائمًا في صحراء تذيب شمسها الحديد، ثم إذا هو داخل دائرة من الظل تُسامِت جسمه وتغطيه دون أن تزيد، وترفع حليمه رأسها إلى السماء فلا ترى مُزعة سحاب، وتتحسس

الأرض فى ذهول؛ لعلّ هناك شيئًا ما يلقى على الطفل ظلاله ـ لكنـها لا تجد شيئًا، فَتَنتشى لهذا المشهد المبـارك، وتُقبل علـى طفلـها تشـمُّه وتضمُّه وتقبله، ثم تحمله فى حنان راجعة به إلى أهلها ودارها..؟؟!!

***

• ألم يكن هو "الشاب" الذى لم يكد "بُحيرى الراهـب" يبصره فى رحلة الشام حتى ملأ الجو تسبيحًا لله وتمجيدًا، وحتى أقبـل عليه يتنسَّم عبيره، ويستهدى مقاديره، وحتى أقبـل علـى عمـه "أبـى طـالب" يوصيه به ويُحذره عليه من يهود..؟؟

• أليس هو الذى قضـى شـبابه وحياتـه طـهرًا، وصدقًـا، وأمانـة، واستقامة ونُسكًا، حتى لقد كانت قريش بأسرها تعامله فى شبابه الباكر، وكأنه سيدها وأميرها.

***

ثـم هـذه النبـوءات القديمـة، والتـى تتحـرك الآن فجـأة وبقـوة، يلخصها جميعًا ويصدح بها آخر الحُنفاء "زيد بن عمرو بن نُفيْل".

"شامَمْتُ اليهودية والنصرانية فكرهتهما"
"فكنت بالشام وما والاه، فأتيت راهبًا"
"فى صومعة، فذكرت له كراهيتى لعبادة"
"الأوثان وارتيابى فى اليهودية والنصرانية"
"فقال لى: يا أخا العرب، إنك تطلب دينًا"
"ما أنت بواجدٍ من يحملك اليوم عليه.."
"ولكن قد أطلَّ زمان نبى يخرج من بلادك"
"التى جئت منها، يُبعث بدين إبراهيم حنيفًا مسلمًا"

"فارجع إلى بلدك، فإنه على وَشْك أن يبعث.."
"هذا زمانه. . . هذا زمانه . . ."

***

قلنا: إنه كان يحدوه الحنين لأن يكون الموعود بفضل الله ونعمته.

ومن ذا الذى لا يشرئب لشرف اصطفاء الله واجتبائه..؟

على أن كل تلك النبوءات المشيرة إليه، والدالّة عليه لم تكن - كما يبدو من سيرته - أكثر من حافز له على المزيد من الإخلاص فى تطلعه إلى الحق، وفى تخشّعه وتضرعه وتعبده لله الذى يهديه إليه قلبه، وإن لم يهده إليه بعد، نبأ يقين.. أو وحى مبين..

كانت روحه تهفو إلى معرفة الله ومعرفته النهج الذى يريد الله من عباده أن يعبدوه به.. وحسبه ذلك لإرواء ظمئه وإشباع تطلعه.. أن يريه الله مناسكه، وأن يتقبله واحداً من عباده المتقين المخبتين.. أما إذا كان سبحانه يدخر له نعمة أسبغ، وفضلاً أوفى، فيصطفيه رسولاً له يبلغ كلماته، ويهدى إليه عباده، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وهكذا راح يعكف بكل شوقه وعزمه على مناجاة ربه، والتأمل فى ملكوته، نافضًا وراء ظهره كل ما تزخر به مكة من صخب وزحام.

وحُببت إليه الخلوة، فكان يكثر منها ويستزيد. ولم تتسع خلوات داره لآفاق روحه، فكان يشد رحاله إلى غار حراء يقضى فيه كل عام شهرًا، يتحنث فيه ويتعبد، حيث لا نبأة تُسمع هناك ولا همسة.. بل هدوء مفرط يكاد يسمعك نبض الدم فى العروق..!!

ومع كل يوم كانت روحه تضيف إلى رصيدها من الصفـاء والألـق جديدًا ..

وأخذت سمات النبوة تلقى عليه مخايلها .. فها هو ذا يمتلك نعمـة "الرؤيا الصادقة" فلم يعد يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح!!..

وها هو ذا لا يجد غَناءً كافيًا فى الشهر الـذى يقضـى فيـه خلوتـه بغار حراء.. فيقسم أيامه بين داره فى مكة، ومَنْسَكِه فى الغار..!!

وذات نهار من شهر رمضان سنة تسع وستمائة للميلاد، وهو هنـاك. جاء اليوم الموعود.. يوم الوحى والاصطفاء.

وجاءه الملك..

أى عالم باهر مليء بالجلال والهدى والخير، فتحت أبوابه للدنيـا هاتان الكلمتان: [جاءه الملك] ؟؟!!..

ألا، وقبل أن تحملنا النشوة إلى بعيـد، علينـا أن نحتفـظ بثقلنـا حيث نحن مـن الحديـث لنتـابع موضوعنـا فـى أنبائـه الفـذة ودلالاتـه العظمى..

ولنصغ فى خشوع إلى الأمين "محمد" الذى صار فى هذه اللحظـة "رسول رب العالمين".

لنضع إلى الرسول الأمين فى هذا الجزء من الحديث الذى وصف به مشهد الغار ويوم الوحى:

" فقال : اقرأ..

"قلت : ما أنا بقارئ..

"فأخذنى، فغطّنى ـ ضمّة بقوة واعتصار ـ حتى بلغ منى الجهد..

"ثم أرسلنى ـ تركنى ـ فقال: اقرأ ..

"قلت: ما أنا بقارئ..

"فأخذنى، فغطّنى الثالثة، حتى بلغ منى الجهد..

"ثم أرسلنى، فقال:

"اقرأ باسم ربك الذى خلق..

خلق الإنسان من علَق..

اقرأ، وربك الأكرم..

الذى علّم بالقلم..

علّم الإنسان ما لم يعلم"..

أهل إذن يوم الاصطفاء، ودقت ساعاتُه الماجدة..

أعلنت السماء إذن مُختارها ومُصطفاها الذى طال ترقُّبه وانتظاره..

صدقت إذن كلمات الكتُب، ونبُوءات الحنفاء والقدّيسين..

وها هو ذا، فى مكان منعزل عن صخب الحياة، فى أعمق غور لأعلى جبل، حيث أوى إلى هناك ناسكًا طهورًا يضرع إلى ربه كى يدلّه عليه، يهبط عليه سفير السماء فى جلاله، حاملاً نور الله إلى المتبتل الأواب، وحاملاً إلى البشرية وثيقة رُشد جديد سيكون إمامُها فيه وأستاذها ومعلمها هذا الإنسان الودود، حفيد إبراهيم، ودعوتُه وبُشراه..!!

***

تُرى لو لم يكن يوم الوحى هذا، بين أيام الدنيا، فأى مصير كانت البشرية ستُلاقيه..؟؟

إن الكلمة التى استهلّ بها الوحى نجواه مع رسول الله لتقدم لنا أروع وأجمع.. وأوجز وأنجز جواب..

فإذا كان العلم، جوهر كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه، وكوكبه..

وإذا كان الإسلام ـ فيما بعد ـ قد قدَّم للدنيا حضارة متكاملة تدين لها كل الحضارات التى جاءت بعده، حتى تلك التى استهدفته بشنآنها وعدوانها.

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك فـى يُسـر لـون المصير الذى كانت البشرية ستلقاه وتتردَّى فيه لو لـم يكـن يـوم الوحـى.. يـوم "اقرأ باسم ربك"، يوم "القرآن" و"محمد" و "الإسلام" بين أيامها، بـل على رأس أيامها.

كذلك نستطيع أن ندرك فى يسر، لماذا كانت أولى كلمات الله إلى رسوله [اقرأ]..

لم تكن "صَلِّ" و"صُمْ"، ولا "تعبُد" بل كانت: اقرأ..

هذه "الكلمة" التى لخصت جوهر الإسلام ومستقبله..

فهو لن يكون دين تكريس دينى فحسب، بل ولا دين سلوك فحسـب، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك "دين حضارة" .. جاء ينشئ عالمًـا جديـدًا بكل ما تحمل كلمتا "عالم" و "جديد" من معنى ودلالة.

ولكى يستيقن الناس عبر الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلـة هـى عطاء السماء، فقد اختبر أستاذها وبانيها ذلك الذى لا عهد له من قبـل بقلم ولا بكتاب.. ذلك أنه لن يكون مخترعًـا لـهذا الديـن ولحضارتـه.. إنما هو مُبلِّغ عن الله.. ناقل عطاياه من السـماء إلـى الأرض.. ومـن ثَـمَّ سيكون معه من المقدرة مـا يغير بـه كيميـاء الزمـن، وكيميـاء البشـر وكيمياء الحياة..!!

ومن يدرى.. فلعل الضمّات الثلاث الشديدة التى ضمّه الملك بـها حتى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها، والذى وصفها الرسـول فـى حديث آخر قائلاً: [فغطنى حتى ظننت أنه الموت].

أقول: لعلها كانت إجـراء مقصـودًا لتغيـير كيميـاء جسـده هـو - وتغيير كيمياء روحه هو - عليه أفضل الصـلاة وأزكـى السـلام - حتـى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التى أفرغت فيـهما ليحتمـلا عـبء الرسالة وأهوال النضال.

ولعلّ انقطاع الوحى عنه بعد هذا اللقاء الأول لفترة بلغت سـنوات ثلاثًا، كان إجراء ضروريًـا؛ حتـى يتمكـن الجسـد والـروح معًـا مـن استيعاب القوة الإلهية الجديـدة التـى أفرغـها الوحـى فيـهما، وحتـى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية بذلك المـدد العُلوى الـذى نقلتـه إليـه الضمات الثلاث الضاغطة التى احتواه بها ملك الله جبريل..

***

والآن، لنمضِ مع "يوم الوحى" فى بقيته المجيدة.

إن الرسول يغادر الغار مُسرعًا تغذّ الرهبة خُطاه، يسـائل نفسـه مـا هذا الذى حدث فجأة وعلـى غير انتظـار..؟ ويلتفـت وراءه.. وأمامـه، وعن يمينه وعن شماله، فيطمئن إلى أنه وحده، وليس ثمت مـن يتبعـه.. بيد أن الأفق يلتمع فجأة بضياء عجيب، فيرفع الرسول رأسه ليرى.. فإذا هو هناك يملأ الأفق فى جـلال مـهيب.. نفـس الملـك الـذى كـان مـن لحظات يملأ عليه غار حراء، وتمخر الرعدة العَذْبة جسده مـن جديـد، ولا يدرى أيان يسـير، فتتشـبث قدمـاه بـالأرض، وتسـتقبل أذنـاه هـذا النداء:

"يا محمد"

"أنت رسول الله، وأنا جبريل"

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه، وتزداد قدماه التصاقًا بموطئهما كأنهما من الأرض بعض غراسها..!!

ويغيب الضوء، ويغيب معه مشهد الملك، ويستأنف الرسـول سيره مقتلعًا من الرمال خُطاه..

ولا يكاد يبلغ داره، ويلقى زوجه "خديجـة" حتى يُلقى نفسه في حجرها وبين يديها، وكل جسده يرتجف كالزلزال.

وتصغي "خديجة" لكلماته المترددة مع أنفاسه الوجلة.. يصف لـها ما حدث تمامًا كأنها تراه.

وتهتف "خديجة" وقد التمع وجهـها الجليـل تحـت ضـوء الأمـل واليقين.

"أبشر يا ابن عَمّ، واثْبُت

فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة".

ويقول لها الرسول، وقد أخذ الرَّوْع يُزايله، والسَّكينة تقترب منه.

"لقد خشيت على نفسى"

وتجيبه خديجة.

"كلا .. وأبشر .. فوالله لا يُخزيك الله أبدًا.

"إنك لتصلُ الرَّحم"

"وتَصدُق الحديث"

"وتحمل الكَلّ"

"وتُكسب المعدوم"

"وتَقْرِى الضيف"

"وتُعين على نوائب الحق".

لم تعش "خديجة" التجربة التى عاشها الرسول فى الغار.. كانت بعيدة عن هذا الذى حدث فجأة، وانتهى فجأة.. فى لحظات، كأنها قرن من الزمان..!!

من أجل هذا، كانت فرصتها مُهيأة لكى تقول كلماتها هذه فى هدوء..

وجزاها الله خيراً فقد كان موقفها ذاك جديراً بمن اختارها القدر على علِم لتكون قرينة هذا الرسول..!!

***

تُرى لو أن "محمداً" كان يطمح إلى مجد النبوة، ويعمل لبلوغ هذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلِّفة - أكانت حاله عند مجىء الوحى إليه ستأخذ هذا الطابع الذى رأينا..؟

كلا.. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهذا العطاء.

لكن "محمداً" كان يرجو الله ربَّه.. كان يريد الله ربَّه.

لم تكن فيه ذرة طموح لمجد دينى. أعنى لمجد يكتسبه باسم الدين.. بل كان كله طُموحًا لتكريس دينى.. كان كله شغفًا وهُيامًا بعبودية خالصة صادقة يطرحها فى تواضع وبكاء بين يدى ربه العلى الكبير.. وكان كله شغفًا وهُيامًا بأن يعرف الحق، ثم يهديه إلى البشرية الحائرة ويهديها إليه. ثم كانت مزاياه التى فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك.. فكان فضل الله عليه عظيمًا.

***

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو "خديجة" من ذهـول المفاجـأة رغم الكلمات الحانية التى ألهمتها حكمتــها إياهـا، لتُسرِّى بـها عـن الرسول رهبة المشهد، وتخفف من وقعه وهيمنته.

لم يكن من طبائع الأشياء، ولا من طبائع البشر ألاَّ ينتقل إليها مـن الرهبة نصيب، مهما حاولت بهدوئها المتبدِّى أن تكتم الرّهبة وتخفيها.

صحيح أن رهبتها لن تكون شيئًا مذكورًا بالنسـبة لرهبـة الرسـول الذى عاش التجربة وعاناها.. بيد أنها رهبة تثير من الحيرة.. وحيرة تُثير من الرهبة ما يدخل الذكاء الإنسانى مهما تكن مقدرته فى أزمة تســاؤل وقلق.

ولقد استطاعت "خديجة" العظيمة حقًـا أن تلقـى وجـه المفاجـأة بثبات كان نابعًا من شخصيتها الفريدة.. أما بقية المفاجأة، فقـد كـانت بحاجة إلى نجدة أخرى تُعطى لما حدث تفسيرًا، وتُضفــى علـى الـروع الذى لا يزال مأخوذًا، المزيد من السكينة واليقين.. وتمثلت لـــها هــذه النجدة فى ابن عمها "ورقة بن نوفل" واحد من الذين اســتهجنوا عبـادة الأوثان والأصنام.. وأضنى نفسه فى البحث عن الديـن الحـق.. وحيـن أدركه الإعياء ألقى رحله على مرفأ من مرافئ النصرانية متمثلاً فى ذلك المذهب الذى كان يرى فى المسيح بشرًا، لا إلهًا..

وهكذا اقترحت "خديجة" على "الرسول": أن يذهبـا إلـى "ورقـة" علّهما يجدان عنده رأيًا وتفسيرًا..

كان "ورقة بن نوفل" على علم واسع بالتوراة والإنجيل.. وقـد قضـى شطر عمره فى البحث عن دين حق يعبد الله به. وخلال رحلاته وأسـفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان والناسكين، ولطالما سمع نبوءةً تتردد

بأن رسولاً يبعث إلى الحياة دين إبراهيم على وشك أن يُهلّ ويظهر. وذهبت بعض النبوءات إلى أبعد من هذا، فحددت مكان ظهوره ـ مكة وما حولها.

وعاش "ورقة" بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور، ويمنى نفسه بصحبة الرسول الذى أجمعت نبوءات العارفين على قرب مجيئه، لذلك وطّن نفسه على الاستقرار بمكة فى انتظار الرسول.

وهكذا لم تكد "خديجة" تقدّم إليه نبأ زوجها عليه السلام، قائلة له:

[يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك] ـ حتى هاجته أشواقه العميقة، وأقبل على الرسول يصغى إليه فى انبهارٍ عظيم.

ولا يكاد الرسول يُنهى حديثه حتى يتهلل "ورقة" ويفيض بشراً ويعانق الرسول ويقول له:

[هذا هو الناموس الذى أُنزل على موسى، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك].

ويسأله الرسول: "أوَ مُخرِجىَّ هُمْ" ..؟

ويجيبه ورقة: [نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً].

بهذه الحفاوة، وبهذا اليقين تلقّى "ورقة" النبأ الحق الذى كان من قبل نُبوءة طال تطلعه إليها.

وإنه ليتمنى أن يدركه يوم البعث ليكون أول المؤمنين وأقوى النصراء.

لكنه سيموت وشيكا، قبل أن يجىء يوم البعث العظيم.

وهكذا لم يُقدر له رغم فرحـه الغـامر أن يؤمـن بالرسـول وبـالدين الجديد.

ذلك أن الدين الجديد لم يكن قد أعلن ميثاقه بعد.. والرسـول لـم يؤمر أن يبشر بشىء، أو أن يتلقى بيعة.

إنه الآن يعيش فى يوم الوحى.. يوم ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلـق﴾. وبعد حين يجىء يوم البعث.. يوم ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾.

وبين اليومين زمن ليس بالقصير، سينقطع فيه الوحى لحكمة يعلمها الحكيم العليم.

وخلال هذه الفترة، ستكون روح الرسول قد أشرِبَت النور الجديـد وتهيأت لاستقبال موكبه العظيم.

وخلالها أيضًا ستكون أشواقه الحميمة والعظيمة إلى الوحـى قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه، وأعطت روحه مناعة هائلة ضد أى توجُّس أو تساؤل.

أجل. لقد تُرِكَ لأشواقه المحتدمة والعارمـة تُشكل مُناخ علاقتـه بالوحى حين يعاوده ويجيئه، وتُنضج استعداده الأخير لصحبته..

وهكذا ، رأيناه عليه السلام، ينطلق أمام ضغط أشواقه إلى الجبـل، مقلبًا وجهه فى السماء، معتصرًا مآقيه بدموع الحـب والرجـاء، هاتفًـا ضارعًا من أعماق صمته المـدوى، عـلَّ روح القـدس يَمُـنّ عليـه بِعَـوْدٍ قريب.

لكن روح القـدس لا يملـك مـن أمـره شـيئًا .. وفيمـا بعـد سـيخبر الرسول بهذه الحقيقة قائلاً له:

"ومـا نَتَنَزَّلُ إلا بأمر رَبك"

"له ما بين أيدينا وما خَلْفنا"
"وما بين ذلك"
"وما كان ربُك نَسِيًا"

وظلَّ يعاود قنن الجبال راجيًا أن يراه.

وعلى الرغم من احتدام أشواقه، وتوقد لهفته، وتوجُسه الرهيب، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقَلاَه.. على الرغم من ذلك كله، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد الرغبة فى تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة ـ كما تزعُم بعض الأقاويل.

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحض هذه المقولة.

فليس محمد بشخصيته الراسخة وشمائله الشامخة من يصنع ذلك، أو يفكر فيه.

ثم إن الأشواق حين تتفجّر على النحو الذى عاناه الرسول، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء، لا القُنوط واليأس.

أما اختياره المرتفعات ليناجى فوقها نفسه، ويتحسس أمله، فلأنها دائمًا أصلح مواطن التأمل، والتماس السكينة، وتوقع الإلهام.

***

ألا ما أجلُها من حكمة ـ تلك التى أرادت أن يفْتُر الوحى عنه إلى حين..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة النور التى تلقتها فى أول لقاء مع جبريل.

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية وحشد طاقاتها لتقوى على الصحبة الطويلة للوحى.. تلك التى ستدوم ثلاثة

وعشرين عاما كاملة.

وإلى جانب كونها تمكينا لعلاقته المقبلة مع الوحى عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم.

وإلى جانب ما قد تومئ إليه من منحه حق الاختيار. إن شاء أن يتقدم حاملا من أعباء الرسالة ما يطاق ومالا يطاق، وإن شاء فليتأخر، قبل أن يرتبط مع الوحى بعهد وميثاق..

نقول: إلى جانب هذا الذى يمكن أن نلتمس فيه بعض الحكمة فى انقطاع الوحى عن الرسول إلى حين.. فقد كان فى وسعه خلال تلك الفترة أيضا ، أن يعيش فى نور الآيات الخمس التى لقنه الوحى إياها فى الغار.

هذه الآيات التى تطل كلماتها المعدودة على موكب زاخر من المعانى والدلالات.

هذه الآيات التى لم تستهل حديثها معه عن القرشى، ولا عن العربى.. بل عن الإنسان:

﴿علم الإنسان مالم يعلم﴾

وكأنها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته.. فهو - عليه الصلاة والسلام - لن يكون لقريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم، بل للناس كافة وللبشر أجمعين.

كذلك سيكون فى وسعه أن يروض نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس.. هذه الأمور الكبرى التى سيذكره القرآن بها كثيرا فيما بعد قائلا له:

﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو

مكظوم﴾

***

﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تطع منهم آثما أو كفورًا﴾

***

﴿ولولا أن ثبّتناك، لقد كدت تركَنُ إليهم شيئًا قليلا﴾

***

أجل.. إن مع الرسول الآن، وخلال فترة انقطاع الوحى عنه، أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد.

وكأنما أراد الوحى بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة فى ذروة تعبيراتها ومسلكها.

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونَذْرِ حياتهم له سبحانه، قد يطيقون الصبر معه، أى مع ما يتوسلون به لمرضاته من عبادات بالليل والنهار.

وقد يطيقون الصبر فى سبيله، بما يحتملون من أذىً واضطهاد لكن الأمر الذى يجاوز طاقتهم حقًا، هو الصبر عنه..!!

ومن ثم لا نجد نبيًا ولا وليًا ولا قديسًا يزلزله فى أهوال الحياة كلها شىء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له، وحبه لله.

فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبى.. فكيف إذا عانى هذا الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحى سَمِعه، وأحسَّه، ورآه..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه وحيًا وسفيرًا يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو فجأة ينقطع عنه دون أن يعطى وعدًا بلقاء ..؟؟

هنا الفرصة التى لا تتكرر؛ لكى تحلّ فى روح الرســول وشـخصيته أقصى مـا عـرف البشـر ومـا لـم يعرفـوا مـن قـوى الصبر والاحتمـال والتجريد.

فأما الصبر والاحتمال، فـها هـو ذا يـرى فـى لحظـة مـن الزمـان ـ الشمس ملء يمينه، والقمر ملء يساره.. ثم فجأة لا يراهمــا.. ولا يـرى إلا فراغًا وحيرة.. وليس أمامه سوى الصبر حتى تعود الفرصـة اليتيمـة، إذا كان مقــدراً لـها أن تعـود. ولكـى يصـبر علـى مثـل هـذه التجربـة ويحتملها، فإن عليه أن يُمارس نوعًا مــن الصــبر لـم تعرفـه الدنيـا مـن قبل..!!

وأما التجريد.. تجريد يقينه بربه من كل العلاقات، حتى تلك التـى تكون مَثُوبَة لليقين وانعكاسًا له.. فها هو ذا يظفر بما لايخطر على قلــب بشر من الناسكين والعابدين ـ وحى من الله يزوره ويُقرئه آيا تــه، ويقـول له: أنت رسول الله. وأنا جبريل.. ثم يمضى كأن لم يجئ، وكأن لم يكن. بل وينقطع وقتًا طويلاً دون بادرة عودة..

أهناك فرصة أجود من هذه وأبلغ ليجرّد الرسول يقينه من كل علاقة ويحرره بصورة مطلقة لرب العالمين، ولذات اليقين..؟؟

أجل، إن انقطاع الوحى يعنى هذا.. ولكأنه يقــول للرسـول: ليـأت الوحى، أو لايأتى..

ليذهب عنك إلى حين.. أو فليذهـب عنك إلى الأبد.. ذاك أمـر، لله مَردُّه ومرجعه.. أما أنت فلتبقَ مكانك من العبادة والنُسك.. وليبقَ يقينـك فى دائرة تبتّله وتجرُّده.. ولتبق رُوحك حيث هى سابحة فى فَلك العبوديـة الخالصة..

وبكلمة واحدة.. ابق مكانك، ولا تُرد من الله سوى الله..!!

***

ولقد اجتاز الرسول التجربة بنجاح عظيم، باذلاً أقصى ما يملك البشر من طاقة ـ مُعانيًا من مقاومة القلق، ومن دعم قُوى الاحتمال والصبر فى نفسه مالا يقدر عليه سوى أولى العزم من المرسلين..

وبعد حين سيجيئه الوحى فى صَلْصَلَةِ فرحٍ عظيم، مستأنفًا معه الرحلة المباركة، تاليًا عليه قول ربه العلى الكبير:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"ن ـ والقلم وما يسطرون."

"ما أنت بنعمة ربك بمجنون"

"وإنَّ لك لأجرًا غير ممنون"

"وإنك لعلى خلُق عظيم.."

لقد نجح "محمد" وفاز فوزًا عظيمًا.

نجح رسول الله، وجاء الوحى يتوِّجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج..

"وإن لك لأجرًا غير ممنون"

"وإنك لعلى خُلُق عظيم".

هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذى أقامته السماء لصفيِّها ورسولها، حيث يتلقى فيه بعد طول قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن: هأنذا معك من جديد ومعك دائمًا، يا صاحب الخُلق العظيم..؟؟!!

***

هنيئًا لك، أبا القاسم ما أعطيت وأُوليت..

وهنيئًا لأمتك بك.

والآن، فمع وحي الله وسفيره.. لن تُقلِّب وجهك بعد اليوم باحثًا عنه.. فهو معك بإذن ربه، يتنزل على قلبك بالنور والفرقان.

فغداً يتلو عليك..

"يا أيها المزّمّل .."

"قم الليل إلا قليلاً."

"نصفه ، أو انقُصْ منه قليلاً"

"أو زدْ عليه، ورتل القرآن ترتيلاً"

وبعد غد، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف:

"يا أيها المدَّثِّر"

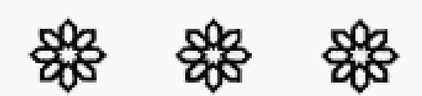
"قُم، فأنذر "

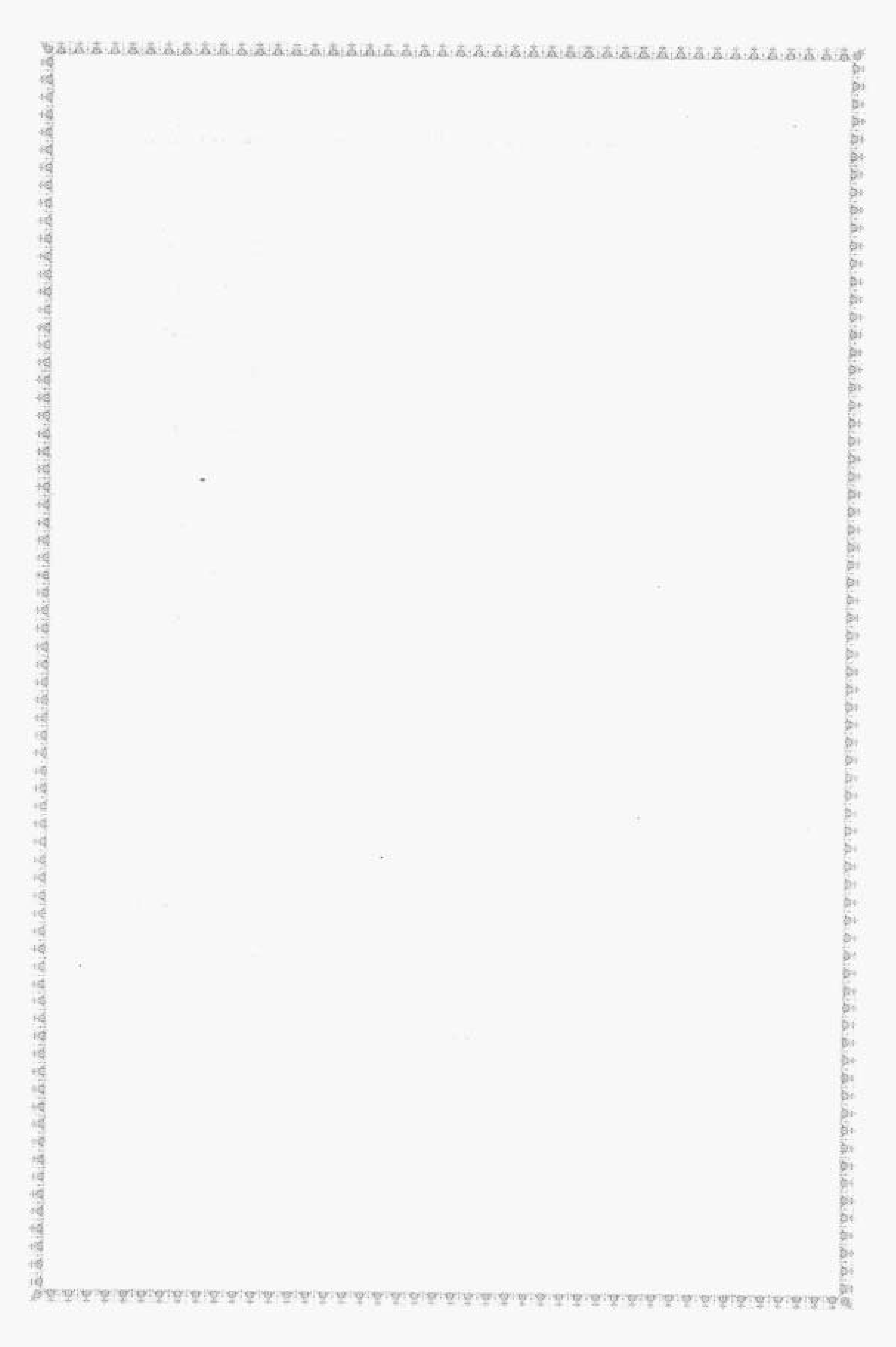
ثم تتوالى رَوحاته وغدواته بين السماء والأرض.. بين الله ورسوله.

لسوف يصحبك ثلاثًا وعشرين سنة.

وسوف لا تفتقد أبدًا مدد ربك، ولا صُحبة خليلك.. وستَتمُّ النعمة لك.. وعليك يا أبا القاسم..

ولسوف يعطيك ربك فترضى..





(٣)

يوم الطائف

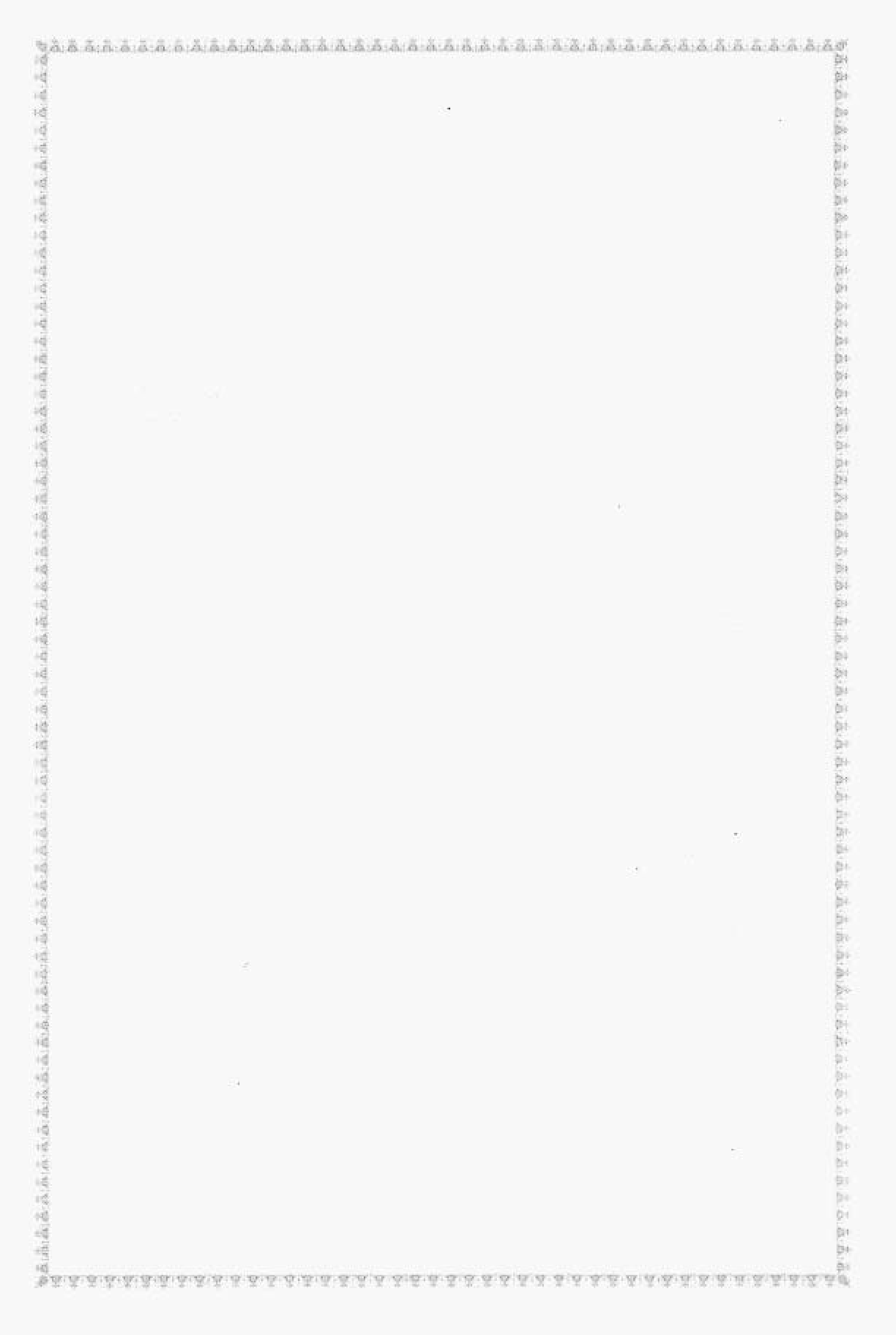
﴿واصبر، حتى يَحْكُمَ الله﴾

❁

❁

❁

❁



لم يدَعْه الوحى يلتقط أنفاسه حين عاد إلى داره يرتجف على إثر لقاء من تلك اللقاءات التى تجددت بعد فترة الانقطاع فلحق به سريعًا، يدعوه أن ينهض من تحت غطائه:

﴿يا أيها المُدَّثِّر﴾

﴿قم، فأنْذِر﴾

ونهض من فوره.. فما عاد هناك تساؤل حول المهمة العظمى التى اختير لها، والتى من أجلها جاءه الوحى أول أمس، وأمس، واليوم..

﴿قم، فأنذر﴾

﴿وربك فكَبِّر﴾

هو إذن رسول الله وخاتم النبيين..

هو الرسول الذى تنبأ به الأنبياء، وتحدثت عنه الكتب، وانتظره الزمان.

فلينهض إذن على بركة ربه مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا.

ولقد نهض قائمًا.. ووجّه لله وجهه وقلبه حنيفًا مُسلمًا..

وراح يدعو لله على بصيرة، ومعه ذلك الرصيد الباهر والنادر من

الخلق والفضيلة وعظمة الشخصية واستقامتها.

"يا معشر قريش:

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تُغير عليكم، أكنُتم مُصَدِّقىّ..؟؟

صاحوا جميعًا بكلمات واحدة:

"نعم.. فما جربنا عليك كذبًا قط"

"إذن، فأنا رسول الله إليكم".

وحدث وُجوم وهجوم..

أما الوجوم فقد احتوى الأكثرية فى تيهه، وأما الهجوم فقد تولى كِبْرَه أبو لَهب فى صلف وجهالة..!!

ومن تلك اللحظة المجيدة بدأت قافلة الإسلام سيرها، تنمو أعداد رجالها وجنودها فى أناة وبطء، ولكن فى أصالة ورسوخ.

ويأخذ مكان الصدارة فيها "خديجة" و "على" و "أبو بكر" و "زيد بن حارثة".

ثم يسارع إليها "عثمان بن عفان" و "سعد بن أبى وقاص" و "الزبير بن العوام" و "طلحة بن عبيد الله" و "عبد الرحمن بن عوف" "بلال" و "خبَّاب" و "ابن مسعود" و "عمار" و "سُمَيَّة" و "سعيد بن زيد" و "فاطمة بنت الخطاب" و "مصعب بن عمير".

ويُنادى الهُدى رُوَّاده، فيسارعون إليه مُعانقين مصايرهم الشهيدة والمجيدة تحت راية الله، وبين يدى رسوله.

وينفتح باب دار الأرقم ليستقبل هذه الثُّلَّة المباركة المستخفية من كيد الضلال.

وتلمح قريش بذكائها ما سيكون لهذه الدار المتواضعة المستخفية من خطر عليهم وعلى ما يعبدون.

وتتقبّح كبرياؤها، فتلهث وراء النور تتحداه فى سُعار وشراسة.

ويصمد المؤمنون على قلتــهم، فيغطى صمودهم وثباتُهم قريشًا بهوان ما عرفت مثله هوانًا.

ويصيبها الخبال، فتذهب إلى "أبى طالب" تعرض عليه أن يُقايضها على ابن أخيه بأى فتى يختاره من فتيان قريش البُسْل المغاوير، ويدرك "أبو طالب" ما أصابهم من جنون، فيجيبهم فى سخرية منهم ورثاء لهم:

"أتعطونى ولدكم أربيه وأغْذُوه
"وأسلمكم ولدى. لتقتلوه"..؟!

ويقف العَمْ، والزوجة.. أبو طالب، وخديجة إلى جانب الرسول بكل ما لهما من جاه واقتدار.

وتفقد الوثنية صوابها، فتتنادى إلى حِلْف وبيل تقاطع به بنى هاشم جميعًا، وتعزلهم عن الحياة والجماعة فى وحشية مُبهظة.

وتُوغِل فى صَبِّ العذاب على المؤمنين لا تفرق بين الوجهاء منهم والفقراء، وإن كان للفقراء من ذلك النصيب الأوفى.

ولكن هناك.. فى وجه العاصفة وأمام زئيرها الرهيب كان يقف "رسول الله" باسمًا، مطمئنًا.. ينفض بطمأنينته وتهلله عن كاهله وعن كواهل أهله وأصحابه كل ما تقذف به قريش من أذى وضُر وعذاب.

كانت بسمته الواثقة المستبشرة تملأ أفئدة الحافِّين حوله سلامًا وغبطة وأمْنًا..

وكانت إشارة عذبة ترسلها سبابته إلى الأمام، كافية لأن تملأ قلوب أصحابه بجسارة ترفعهم فوق مستوى كل ما عرفت الدنيا من هول وخطر.

ذلك أنهم كانوا يعرفون ما تقوله هذه الإشارة، ويؤمنون به أرشد إيمان - لقد كانت تقول لهم:

- لا بأس.. واصبروا.. فغداً النصر.. وبعد غد الجنة، ويصبر المؤمنون، ويصابرون..

ولكن العزيز عليه عَنتهُم، الرؤوف الرحيم بهم - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - لا يطيق عذابهم وإن أطاق عذابه، فيأمرهم بالهجرة إلى الحبشة راضياً أن يبقى وحده هدف قريش التى استسلمت لنداء أحقادها استسلام المجانين.

وذات عام..

وهو عام جدير بالوصف الذى يحمله، إذ نُعِت بعام "الحزن" فقد الرسول عمه الحبيب "أبا طالب" وزوجته الوفية "خديجة" .

فقد العم، الرجل الذى ذاد عنه وضحّى فى سبيله كما يذود وكما يضحى أفذاذ الرجال.

وفقد الزوجة التى أعطت من إيمانها وحنانها وجاهها أجزل عطاء..

والآن، يخلو الجو لقريش أكثر من ذى قبل، فتلاحق المصطفى المختار بسفاهاتها الشرسة.

وهى لا تخجل من اقتراف الإهانات الصغيرة الهابطة ضد هذا الذى كانت تَشَم عبير فضائله، وتعامله رغم حداثة سنه كما لو كان

أميرها وسيدها..!!

ها هى ذى تغرى به من سفهائها من يلقون عليه التراب والروث.

وتنحنى ابنته العظيمة "فاطمة" فوق ردائه باكية تُميط عنه الأذى وتغسله.

وفى صبر المصطفين الأخيار يجفف دمعها بكفّه الحانية، ويقول لها:

"لا تحزنى يا بُنيَّة"

"فإن الله مانع أباك"..!!!

لم يزايله اليقين لحظة أن الله مانعه وحافظه وراعيه.. ومن ثمَّ أسلم لعذابهم واضطهادهم جسده.. أما روحه، فهيهات لملء الأرض بأسًا وحقدًا وقوة وبغيًا أن ينال منه منالاً.

وهكذا - شأنه فى هذا شأن أولى العزم من الرسل - لم يقاوم اضطهادهم بالصبر فحسب.. بل وبالمزيد من العمل، وبالمضى قُدُمًا على نفس الطريق الذى ملأوه رصدًا، وحرابًا، وهولاً..!!

وذات يوم راح يلتمس لدعوته مؤمنين جددًا، وفى نفس الوقت يمنح نفسه المرهقة ساعات من الراحة والأمل بإبعادها عن جو الاضطهاد القاتل الذى تصبه عليه قريش وحيدًا..

وشد رحاله إلى الطائف..

وكان يومًا عجبًا..!!!

***

إن مزايا ذلك اليوم الفريد ودلالاته تستبين من وقائعه وأحداثه، فبموت أبى طالب أوغلتْ قريش فى ركوب أحقادها، وفى ملاحقتها

الرسول بالأذى والضرَّ..

ولقد صور ـ عليه السلام ـ هذه الحقيقة بقوله:

"ما نالت منى قريش شيئًا

أكرهه حتى مات أبو طالب".

هنالك بدا له أن يرحل إلى الطائف، يبلغ ثقيفًا كلمة الله، ويستنصر بهم حين يسلمون على قريش وجنونها..

إنه يرفض اليأس ويدحضه بالعمل والمثابرة.. وفى نور يقينه بالمهمة التى اصطفاه الله لأدائها راح فى حُلكة الأحداث يرى طريقه ويبصر غايته.

وحَملةُ المبادئ الكبيرة ليسوا شجعانًا فى أعمالهم وحسب، بل هم كذلك شجعان فى آمالهم وأحلامهم، لا سيما إذا كانوا من المرسلين.

وهكذا نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يتخطى بآماله وبأحلامه كل عوائق القنوط ودوافع اليأس.

فهو إذ يرى أهله وعشيرته وأعرف الناس بصدقه وأمانته ونبل شمائله واستقامة نهجه.. حين يراهم يكذّبونه ويحاربونه، لا يستسلم لمنطق اليأس الذى يقول: إذا كان هذا صنيع الأقربين والذين يعرفون.. فكيف إذن يكون صنيع الآخرين.؟

لم يستسلم لهذا المنطق رغم إغرائه، بل امتدت آماله وأحلامه إلى الآفاق البعيدة التى لا تبشر بخير ولا بعطاء.

أجَلْ.. إنه رسول، عليه البلاغ.

﴿إنما أنت مَنذِر﴾!!

﴿ولكلٍّ قوم هاد﴾

وهكذا، سافر إلى الطائف.. وهناك بدأ بثلاثة من سادتها وأشرافها راجيًا أن يصيروا - إذا هداهم الله لدينه - قدوة تجرى ثقيف وراءها.

وكان هؤلاء الثلاثة إخوة وأشقاء، أبنـاء عمـرو بـن عُمير. أقبـل عليهم رسول الله يدعوهم إلى الهدى، ويحدثهم عن الإيمان، ويبشـرهم بمثوبة الله ورضوانه إذا هم ناصروه وآزروه واتبعـوا النـور الـذى أنـزل معه، لكنه فوجئ بقلوب أقسى من الصخر، لم يكتفِ أصحابـها بجحـود ما يسمعون، بل جاوزوا الجحود إلى السخرية، وتحريض السفهاء مـن أهليهم وعبيدهم على توجيه الإساءات المؤلمة إلى شخصه الكريم.

لقد تخلى سادة ثقيف هـؤلاء عـن أبسـط مظاهر الخُلـق العربـى - إكرام الضيف الغريب..!!

لقد كان جوابهم لدعوة الرسول إيـاهم أن قـالوا: [ألـم يجـد الله غـيرك يرسـله]..؟؟ ثـم نـادوا سـفهاءهم وعبيدهـم ليشـيعوا الرسـول بالسـباب والسـخريات والحجـارة يقذفـون بـها أكـرم الخلـق وإمــام الهُداة..!!

ولم يفجعه الموقف على ما فيه من نذالة وسفالة، بقـدر مـا توجَّسَ من خيفة الشماتة، ومرارة التشفى حين يبلغ قريشًا هذا الــذى لقيـه فـى الطائف من ثقيف.

ومضى.. تلاحقه مظاهرة السفهاء صاخبة نابحة، حتى وجـد بسـتانًا فأوى إليه، وراح يجفف الدم الذى يسـيل مـن عقبيـه اللتيـن أدْمَتْـهما حجارة السفهاء.

وأخذه على نفسه الحنان، فتندَّت بالدمع عيناه..!! إنه منذ وُلد حتى يومه هذا، أى طوال ثمان وأربعيـن عامًـا وهـو يعيـش بيـن النـاس فـى

مهرجان حافل بالحب، والحفاوة والاحترام.. ثم ها هو ذا اليوم، يلقى الذى يلقاه .

ولكن، أى بأس إذا كان هذا وأضعافه معه فى سبيل الله..؟؟

أى شرف عظيم أن يناله الضر لأنه يرفع فى الأرض راية الحق والهدى والخير..؟

وأى شىء يجعل الحياة عظيمة، سوى ألم عظيم..؟؟

هنالك أسند ظهره إلى إحدى شجيرات البستان، وبسط كفيه إلى السماء مناجيًا ربه وضارعًا إليه:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتى،

وقِلّة حيلتى، وهوانى على الناس"

"يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين،

"وأنت ربى، إلى من تكلِنُى..

"إلى بعيد يَتجهّمُنى..؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى؟

"إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى..!!

"ولكن عافيتَك أوسعُ لى..

"أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات،

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى

غضبك، أو يَحِلَّ علىَّ سخطك

"لك العُتْبى حتى ترضى.

"ولا حول ولا قوة إلا بك" ...!!!

إنها معزوفة جليلة، لروح جليل.

إنها ابتهالات رسول أوّاب قدَر الله حق قدره، وأسلم وجهه وقلبه

وكله لمشيئته ورضاه.

"إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالى"

ولكن.. وحتى لا تشِى هذه الكلمات بشىء من الزهو بالقوة، والخيلاء بالقدرة والصمود والاحتمال، يشفعها على الفور بكلمات تجرد حوله من حَوْله. وقوته من قوته.. وتعلن عبوديته المطلقة لربه، وحاجته المطلقة لحول الله وقوته..

".. ولكنّ عافيتك أوسَعُ لى"!!!

أىّ سكينة نفس.. وأى طمأنينة روح ـ وأى ذكاء قلب.. فى ذلك الموقف الذى يملأ النفس كربًا ويأسًا وبؤسًا..؟؟!!

"لك العُتْبَى حتى ترضى"

"ولا حول ولا قوة إلا بك"!!

***

ولكن، لماذا يا تُرى تركته المقادير يواجه هذا الموقف البالغ الصعوبة والحرج..؟

إنه لا ألم أمضَ للنفوس الكبيرة ولا أشقّ عليها من الإهانات الصغيرة.

إن النفوس الكبيرة تحتمل الآلام الكبيرة مهما يكن عَنَتُها وضُرّها فى طمأنينة وشموخ.

أما الإهانات الصغيرة التى تجرح كرامتها ووقارها، فكثيراً ما تكون فوق طاقتها واحتمالها..

وإنّا إذ نقرأ ابتهال الرسول الذى مرّ بنا من قريب لنكاد نُحس مذاق المرارة وطعمها فى قوله:

[وهوانِى على الناس]..

فلماذا تُرِكَ الرسول لهذه المحنة القاسية..؟

إنه درس يوم الطائف العظيم..

إنه الدرس الذى يعلّم الحياة ويعلم الأحياء أن آلام ذوى المبادئ الصادقة وتضحياتهم ليست الطريق إلى سيادة هذه المبادئ وحسب..

بل هى من صميم تلك المبادئ وجوهرها.

هى جزء من ذاتها وتكوينها ـ فلا حقيقة بغير ألم وتضحية ولا فضيلة بغير ألم وتضحية..

ووفق الطراز الذى تكون منه الرسالة، ويكون منه صاحبها وحاملها ـ تكون الآلام وتكون التضحيات نوعًا وكَمًّا..

من أجل هذا، كان الوحى يعنى ما يقول حين نادى الرسول ليلقى عنه دثاره وقال له:

﴿ولربك فاصبر﴾

إنهما كلمتان اثنتان.. بيد أن لهما رهبة تنذر بجسامة التضحية التى سيكون عليه أن يبذلها ويحتمل كل ظروفها.

وفيما بعد.. وعلى طول طريق الرسالة سيظل الوحى يذكره بهذه الوصاة.

﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾

أجلْ، أولو العزم؛ فالأمر يتطلب صبرًا فوق كل المستويات المألوفة للناس!!

والألم الذى يجابه أولى العزم من المرسلين لا يحمل تعويضًا ولا عزاء فى كل حين.. أى أنه لن يكون دائمًا من تلك الآلام التى تطرحها

عداوة الأنداد والأكفاء، وفى مستوى لا يهينُ كبرياء الروح وإن أرهق الجسد بالعذاب.. لا، لن يكون كذلك دائمًا، بل سيجىء أحيانًا خَلْوًا حتى من هذا العزاء سيجىء فى صورة إهانات صغيرة وشاملة، تتمثل فى إخراج الألسنة وحكّ الأنوف، وقذف الشتائم والسخريات، وتحريض السفهاء والغلمان والمجانين يحصبون بالحجارة، ويحثون التراب ويهللون ويصخبون ويعربدون!!!

***

لم يكن ذلك الذى لقيه الرسول فى الطائف عقابًا له ولا لَفْت نظر لخطأ اجترحه. فهو ـ عليه السلام ـ لم يخرج من مكة إلى ثقيف إلا استمرارًا لعملية التبليغ والنذارة التى أُمر بها.

فتركُه يعانى هذا الموقف إذن، لم يكن إلا درسًا من دروس النبوة ومشهدًا من مشاهد القدوة التى تترك للأجيال عَبْر القرون ذخرها ونهجها وهداها..

إنه درس لكل من سيقدَّر له أن يحمل راية الحق والهدى والإيمان، كى يبذل بذل السماح كل ما يملك عزمه الوثيق من تضحيات، وأن يحتمل فى صبر وشجاعة كل ما يُطرح عليه من أوصاب وآلام.

هو درس لهؤلاء جميعًا.

وهو عزاء صادق لهم عن كل ما يلقون من جحود وسخرية وهوان.

وهو نذير لهم بأن ما ينعمون به من عظمة الشخصية وعظمة العقيدة لن يجعلهم بمنجاة من الإهانات السافلة التى تَغِشى النفس وتغيظ الروح..!!!

***

جلس الرسول ـ كما ذكرنا ـ يشكو إلى ربه ضعف قوته وقلّة حيلته وهوانه على الناس، ويكشف آماد ثباته العظيم بقوله:

[إن لم يكن بك غضب علىَّ، فلا أُبالى]

كما يكشف عن حقيقة عبوديته لله واعتماده عليه بقوله:

[ولكن عافيتك أوسع لى]

ويبصره من بعيد صاحبا البستان، فيدعوان خادمًا لهما ويأمران أن يحمل إلى الرسول طبقًا فيه قطف كبير من عنب.

ويذهب الغلام، واسمه "عدّاس" وكان نصرانيًا، حاملاً طبق العنب إلى رسول الله ﷺ، واضعًا إياه بين يديه.

ويغمره الرسول ﷺ، بضياء من ابتسامته الشاكرة، ثم يبسط يمينه نحو قطف العنب قائلاً: [بسم الله]

باسم الله ...؟؟

لقد أثارت هذه "البسملة" دهشة الغلام وعجبه. وعلى الفور دار بينه وبين الرسول هذا الحوار.

قال عدّاس: هذا والله كلام لا يقوله أهل هذه البلاد.

وقال الرسول ﷺ : فمن أى البلاد أنت..؟ وما دينك؟.

أجاب عدّاس: أنا نصرانى، من أهل نينَوى.

قال الرسول ﷺ : من بَلد الرجل الصالح يونس بن مَتّى..؟؟

قال عداس: وما عِلمك بيونس بن متى..؟

قال الرسول ﷺ : إنه أخى، كان نبيًا، وأنا نبى مثله.

تقول الرواية التاريخية التى تروى لنا هذه الواقعة.

[فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ، يُقبل رأسه، ويديه، وقدميه]..!!

وأراد القدر الحكيم أن يجعل من هذا المشهد الفريد درسًا آخر مجيدًا من دروس يوم الطائف، مقدمًا النموذج البشرى الذى سيقع عليه اختيار السماء ليحمل رايتها فى الأرض.

لقد أراد الرسول حين نزل الطائف أن يوفر على نفسه أحقاد أشرافه وعليته حين يرونه لا يبدأ بهم ومعهم الزيارة والحديث.. أراد أن يشعرهم بأهميتهم له ولدعوته، فنزل أول ما نزل ببيت من بيوت الزعامة فى ثقيف، فما كان جواب أهل هذا البيت إلا حطة ونذالة.

وحين احتمى بالبستان من غوغائية المهرجين الذين سُلطوا عليه لم يحرك صاحبا البستان (عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة) ساكنًا من أجل الاستماع له، وتفهم أمره. وهما أيضًا أصحاب جاه وزعامة فى قريش والطائف معًا.

وفجأة.. ومن رُكام هذا الضلال الساخر يُخرج القدر خَبأه العظيم غلامًا فقيرًا أجيرًا، ليس له جاه، ولا ثراء، ولا منصب. يقرأ وجه الرسول فى لحظة، ثم يستيقن صدقه، ويعطيه كل قلبه ويقينه وحبه وإيمانه فى اللحظة التالية..!!

وهكذا أجاد القدر التوقيت، كما أجاد الاختيار، كما أجاد صُنع الإرهاص..

ففى نفس اللحظة التى كانت الأرض تقدم له فيها أقصى ما معها، من بِرّ ممثلاً فى قطف عنب، كانت السماء تقدم إليه أُولى نفحاتها ممثلةً فى هذا الروح الذى يهتز إيمانًا وحبًا وعظمة..!!

وفى نفس الدقائق التى أعرض عنه فيها المستعلون فى الأرض،

وأغروا به سفهاءهم، قدَّم القدر فى شخص "عدَّاس" صورة البسطاء الكادحين الذين سيكون منهم جنده وحزبه ورعِيله.

أجل.. لقد كان ظهور "عدَّاس" فى تلك اللحظة إرهاصًا بالمفاجآت الباهرة التى ستكتب تاريخ الإسلام ورسوله، وتتضمن انتصارهما العظيم.

كان ظهوره فى تلك اللحظة إرهاصًا بنوع البشر الذين يدّخرهم الغيب لنصرة هذا الدين وهذا الرسول، من البسطاء الشرفاء الذين لا تقع عليهم الأعين فى زحام الحياة.

كذلك كان ظهوره غرهاصًا بالمودة والنصرة اللتين سيظفر بهما الإسلام من النصارى أتباع المسيح.

﴿.. ذلك بأن منهم قِسِّيسِين ورُهبانًا، وأنهم لا يستكبرون﴾.

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عَرفوا من الحق، يقولون ربَّنا آمنَا، فاكتُبْنا مع الشاهدين﴾.

وغادر الرسول الطائف راجعًا إلى مكة، بعد أن استغرقت رحلته السريعة هذه بضعة أيام تغيرت قريش خلالها، وكأنها شهور أو أعوام.

لقد وجدهم الرسول حين عاد إليهم يتميزون غيظًا، ويشتعلون حقدًا.. ورأى أنيابهم تصطك وتتهيأ للافتراس.

ولكنه كان قد حَذِق درس الطائف؛ فمن ظلام اليأس الدامس، ينبعث أمل.. ومن تحت وطأة الضلال والإفك تنهض أرواح خيِّرة تعانق الحق والنور..

وكان قد اتخذ من محنة الطائف مَزيَّة.. أليس قد خرج إلى هناك ليدعو أهل ثقيف إلى الله، فجابهته الوثنية بغدرها ومكرها، آملة أن

تفتَّ في عضده، وتَفُلّ باليأس عزمه.؟

إذن فليكن تحدِّيه لها ماثلاً في نفس الصورة وذات الوسيلة.. الخروج إلى القبائل، وملاقاة الغرباء الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه وعَرْض الإسلام عليهم في تفانٍ ومُثابرة.

وكانت مواسم الحج خير فرصة لتحقيق ما يريد.

وسوف يلقاها جميعًا قبيلة بعد قبيلة.. هاتفًا بينهم وفيهم:

".. إني رسول الله إليكم..

"يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد.

"وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبلغ عن الله ما بعثني به".

وسوف ترفض القبائل وتهرب من النور.. وحتى الذين سيعرفون منهم أنه الحق، سيدخلون مع الرسول في مساومات يرفضها من فوره، كما حدث مع (بني عامر بن صعصعة)..

لم يكد الرسول يدعوهم إلى الإسلام حتى نهض واحد من شيوخهم، توسَّم في النبي الصدق والنبوة، وصاح في قبيلته بكلماته هذه:

"والله. لو أخذت هذا الرجل من قريش لأكلتُ به العرب"

ثم قال للرسول عليه السلام:

"أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك..؟

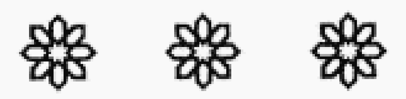
فأجابه الرسول:

[الأمر لله، يَضَعُه حيث يشاء]

إنه دين لا صفقة..

وحتى فى ساعات وحدته هذه وعُسرته هذه، يرفض أن يعطى قبيلة كبيرة كهذه مجرد أمنية دنيوية يكسب بها نصرتهم وحمايتهم، لأن القضية قضية الله؛ وهى أجلّ من أن تتحول إلى صفقة وموضوع مُساومة..

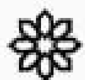
ويمضى للقاء القبائل فى كل موسم حج، وكل تجمُّع لهم خلال أسواقهم المشهورة وأعيادهم الحاشدة، يدعو.. ويُحارب، حتى يأتى يوم موعود يجمعه الله فيه بمن اختارهم سبحانه ليكونوا أنصاره الأبرار..

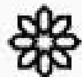


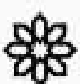
(٤)

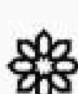
يوم العقبة

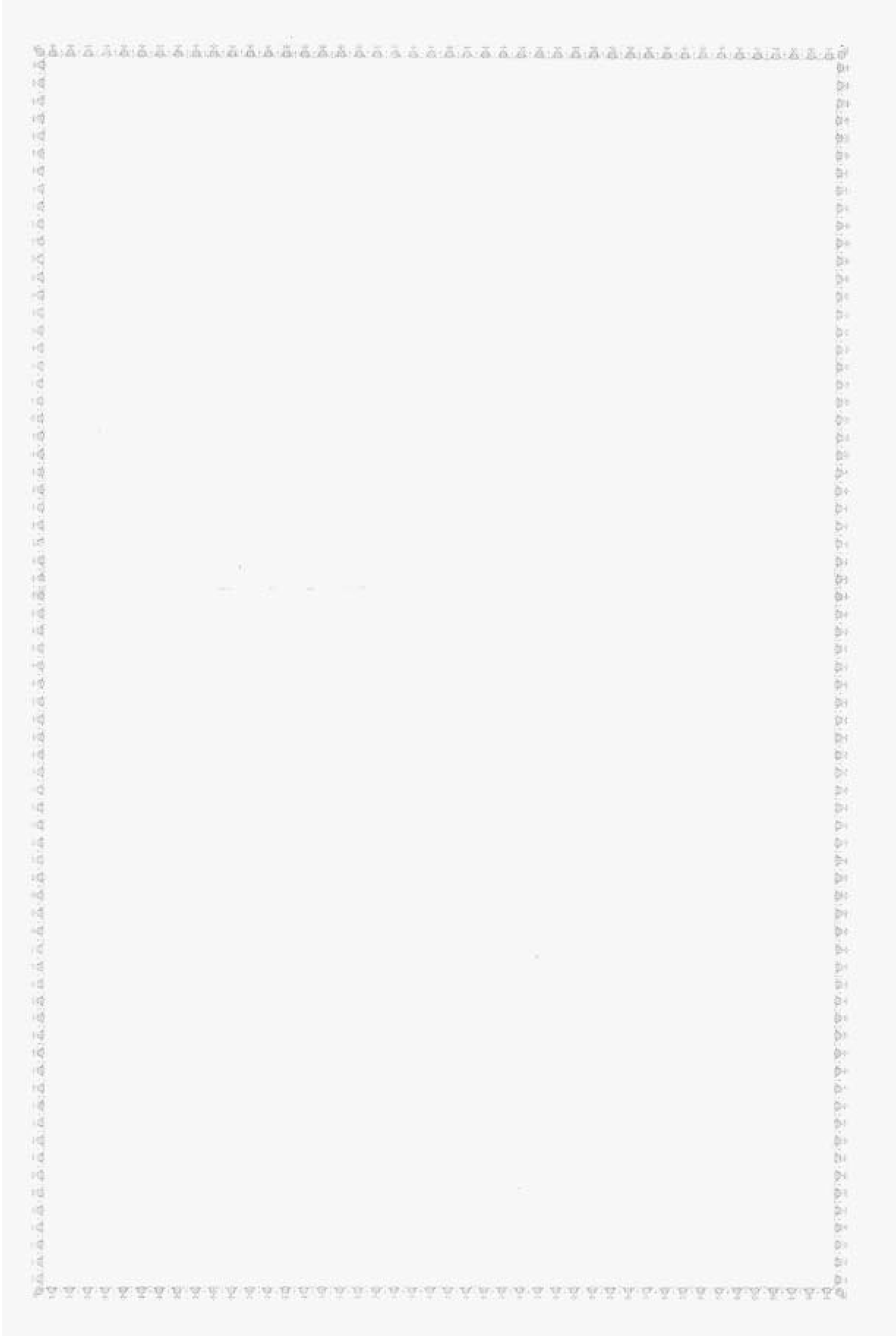
﴿هو الذى أيدك بنصره، وبالمؤمنين﴾











.. وأخيرًا؛ اقترب الوعد الحق. وأوشكت سنوات مكة أن يُطوى كتابها، ليبدأ فى المدينة عهد جديد.

وهنا نلتقى بأهمية "يوم العقبة" ومزيته الكبرى.. فهو اليوم الذى يشير إلى نهاية عهد وبداية عهد آخر: نهاية عهد الاضطهاد والتعذيب والمطاردة من جانب قريش، والانكسار والاحتساب والصبر من المؤمنين.. وبداية عهدٍ:

﴿أذن للذين يُقاتَلون، بأنهم ظُلِموا
وإن الله على نصرهم لقدير﴾..

أجل.. كان يومُ العقبة ذاك، يومَ الإسلام العظيم.. فلولاه ما كانت الهجرة إلى المدينة، ولولاه ما كانت سنوات المدينة العشر التى غزا النبى خلالها غزواته الموفقة الظافرة، وأرسى خلالها الأسس الوثقى لعالَم الإسلام والمسلمين..!!

فيوم العقبة كان الفَجْرَ الصادق لعصر القوة والغلبَة والعزة التى أفاءها الله على رسوله ودينه والمؤمنين.

وهو يوم امتلأ بتخطيط وإنجاز أكثر مواقف الإسلام حزمًا وحسمًا.. وذكاء ومضاء.. ومخاطرة وتوفيقًا..

ولقد شهدت "العقبة" أيامًا ثلاثة فى أعوام ثلاثة.. كذلك شهدت بيعتين فى عامين متتاليين..

ونحن هنا نختص بالحديث يوم العقبة الأخير، وهو الثالث بالنسبة للأيام التى التقى فيها الرسول بطلائع أهل المدينة.. والثانى بالنسبة لليومين اللذين شهدا البيعة التى تمت بين الرسول وطلائع الأنصار، أى اليوم المعروف فى كتب السيِّرة بـ "بيعة العقبة الثانية".

وطبيعى أن اللقاءات الثلاثة التى شهدتها العقبة بين الرسول والأنصار إنما تشكل فى فحواها الأخير لقاءً واحدًا، ويومًا واحدًا، رغم ما بينها من مسافة زمنية.

من أجل هذا، فإن الحديث عن أىٍّ منها، يتضمَّن تلقائيًا الحديث عنها جميعًا.

***

بدأ ذلك اللقاء العظيم فى السنة العاشرة لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، عام (٦٢٠) للميلاد..

وكان الرسول عليه السلام قد واصَل عَرْض نفسه على قبائل العرب، وأعطى مواسم الحج أهمية وعناية، فَثَمَّ قبائل من كل أطراف الجزيرة يستطيع أن يلتقى بها ويبلغها كلمات ربه. وفى موسم الحج فى العام العاشر من بعثته التقى بنفرٍ من حجاج المدينة جلس إليهم وسألهم عن موطنهم؟ فأجابوه أنهم من المدينة، ومن الخَزْرَج إحدى أكبر قبيلتين تقطنان المدينة وتسودَانها.

قال لهم عليه السلام:

[أفلا تجلسون أكلمكم]..؟؟

واستجابوا لرغبته، فدعاهم إلــى الله، وحدَّثـهم عـن الديـن الحـق وأودع صدورهم قبسًا من النور الذى معه.

ويشاء الله الـذى لا تُـدرك حكمتُـه، ولا تُغلَـب مشيئته، أن يكـون اليهود الذين سيصيرون فيما بعد ألدَّ أعداء الرسول ودينـه.. يشـاء الله أن يصطنع منهم السبب والحافز وراء إقبال أهل المدينة على الإسـلام ودخولهم فيه أفواجًا.

ذلك أنهم - أى يهود المدينة - كانوا فى صراع دائم ضد الخـزرج والأوس، وضد الخزرج بصفة خاصـة.. وكـان هـؤلاء وثنييـن يعبـدون الأصنام، بينما اليهود أهل كتاب وأتباع رسول.

ولقد كانوا كلما احتدم الـنزاع بينـهم وبيـن الآخريـن توعدوهـم بظهور نبى قرُب أوانه، تبشرهم التوراة بقدومه.. قـائلين إنـه حيـن يظـهر سيكونون من أتباعه وأنصاره، ولسـوف يقـاتلون تحـت رايتـه الخـزرج والأوس جميعًا حتى يُخضعوهم أو يُبيدوهم..!!

ولقد بدأ الرسول حديثه إلى هؤلاء النفر من الخزرج بسؤال يتألق نورًا وإلهامًا.

لقد سألهم:

[أمن موالى يهود أنتم]..؟؟

وهكذا، وبهذا السؤال وضع المؤشِّر تجاه الموجة المطلوبة، فآتت أثرها الحاسم العجيب.

لقد بلغهم الرسول دعـوة الله فـى إيجـاز ويسـر وأعطـاهم الفرصـة ليفكروا ويتدبروا..

وفيما هـم يتشـاورون، ذكرَّهـم سـؤال الرسـول بمـا كـان اليـهود

يتوعدونهم به دومًا، فقال أحدهم:

"يا قوم..

"واللّٰه إنه للنَّبِىُّ الذى توعَّدتنا به يهود.

"فلا يَسْبِقُنَّكم إليه".

وعادوا إلى النبى، يخبرونه أنهم قد تقبَّلوا أحسن قبول ما عرض عليهم من هدى ونور، وقالوا له:

"إنا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثلُ الذى بينهم.

"وحين نرجع إليهم سندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين.

"فإن يجمعهم اللّٰه بك، فلا رجل أعزّ منك"

ولم يتم بينهم وبين الرسول بيعة.. لقد أعلنوا إيمانهم وتصديقهم ووعدوا بإبلاغ من وراءهم من الأهل والعشيرة.

وعادوا إلى بلادهم مُباركين..

كانوا ستة رجال.. ما أجمل أن نُشرِّف ونُزين هذه الصفحات بأسمائهم الميمونة.

إنهم:

أسعد بن زُرارة.

وعوف بن الحارث بن رفاعة.

ورافع بن مالك بن العجلان.

وقطبة بن عامر بن حديدة.

وعقبة بن عامر بن زيد.

وجابر بن عبد اللّٰه.

وإنّا إذ نذكرهم برضوان الله وبركاته، لنذكر فيهم ومعهم إخوانهم الذين سيأتون على أثرهم ويدخلون فى دين الله أفواجًا.

***

عاد الرجال الستة إلى المدينة، وكان اسمها "يَثْرِب"، فحدثوا قومهم بما رأوا من نور الرسول، وبما سمعوه من حديثه الصادق المضىء.

وفى موسم الحج من العام التالى، جاء منهم إلى مكة اثنا عشر رجلاً، بينهم خمسة من الستة الذين شهدوا اللقاء الأول مع رسول الله.

واجتمع بهم الرسول فى نفس المكان، وبايعهم "بيعة العقبة الأولى".. وكانت كما يحدثنا عنها "عُبادة بن الصامت" أحد المبايعين:

"كنتُ فيمن حضر العقبة الأولى..

وكنا اثنى عشر رجلاً..

فبايعنا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف..

وقال لنا الرسول:

"إن وفّيْتُم، فلكم الجنّة..

وإن غَشِيتُم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذّب.. وإن شاء غَفَر"..

وأحسّ الرسول بنور بصيرته، وبما سمع من مُبايعيه أن رياح الإسلام بالمدينة تجرى رُخاء، وأن المسلمين الجدد بحاجة إلى معلم

وفقيه، فاختار من بين أصحابه "مُصعب بن عمير"(١)، فصحب وفد الأنصار إلى المدينة، وهناك فتح الله له وعلى يديه فتحًا عظيمًا..

وفى موسم الحج من العام التالى، كان "مصعب بن عمير" يدخل مكة ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً كلهم يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.. وامرأتان مباركتان دخلتا فى الدين الجديد، وجاءتا تسابقان الشوق إلى رؤية الرسول الكريم.

هاتان السيدتان هما:

أم عمارة: نسيبة بنت كعب.

أم مَنيع: أسماء بنت عمرو.

وبمحضرهم إلى مكة، وبلقائهم مع رسول الله، كان يوم العقبة العظيم..

***

كانت مكة تموج بوفود الحاجِّين إليها وإلى أصنامها.. ولم يكن أهلها يدرون أن قريشًا تعيش آخر أيام صلَفها وجبروتها وغرورها!!

وكان المسلمون الخمسة والسبعون القادمون من المدينة يقيمون فى خيامهم مع مواطنيهم من أهل المدينة الوثنيين الذين لم يتعرفوا للإسلام بعد..

وخلال أيام التشريق، وبعد الفراغ من الحج اتصلوا فى سِرِّية كاملة محكمة برسول الله عليه الصلاة والسلام وواعدوه على اللقاء عند العقَبَة ذاتها، التى شهدت من قبل لقاءين مُباركين ولندَع

(١) راجع كتابنا "رجال حول الرسول" مصعب بن عمير ـ أول سفراء الإسلام.

الصحابى المبارَك "كعب بـن مـالك" يـروى لنـا هـذه الفقـرة مـن النبـأ العظيم:

".. فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا..

حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسـول الله ﷺ، نتسلَّل تَسَلُّل القَطا مُسْتَخْفِين، حتى اجتمعنا فـى الشِّعب عنـد العقبـة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا ـ نُسيبة بنت كعـب، وأسماء بنت عمرو..

"فاجتمعنا فى الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتـى جاءنـا ومعـه عمـه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على ديـن قومـه، إلا أنـه أحَـبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

"فلما جلس ـ كان أول متكلم ـ العباس بن عبد المطلب.."

***

فى هدأة الليل وسـكونه.. وعلـى حيـن غفلـة مـن قريش المتربصـة المتحفزة تمّ أخطر وأعظم اجتمّاع فى حيـاة الإسـلام كلـه، وفـى حيـاة التاريخ الإنسانى الذى أثَّر الإسلام فى تكوينه وأسهم فى صُنعه..

وفى ذاك المؤتمر المجدود، همس القدر فى أذن المستقبل، فـإذا أبوابه تنفتح على الرحاب مستقبلة كتائب الله..!!!

وفى ذاك المؤتمر المجدود، تألقت عبقرية القيادة والتنظيـم لـدى رسول الله وعمه العباس.

لقد اصطحب الرسول عمه العبـاس لينتفـع برجاحـة عقلـه وذكـاء فؤاده فى هذا الموطن الذى لم يكن أحد يعـرف أبعـاده الهائلـة مثلمـا يعرفها رسول الله..

وسواء كان العباس يومئذ مسلمًا يخفى إسلامه ـ كما تقول بعض الروايات التاريخية ـ أم لم يكن أسلم بعد.. فقد كان عظيم الحدْب والعطف على الرسول وصَحبْه.

والآن، وقد أطلعه الرسول على هذا الاجتماع الممعن فى السرِّية والتخفىْ، والبعيدة آثاره وأخطاره، فقد كان شهوده الاجتماع أمرًا محتومًا.

ولقد بدأ هو الحديث فقال:

"يا معشر الخزرج..

"إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا فهو فى عز ومنَعَة.

"وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللُّحوق بكم..

"فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك..

"وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد خروجه إليكم؛ فمن الآن فدعوه" ..

ولم يكد يتلقى منهم إجابة مُطَمْئنة، حتى شفعها بهذا السؤال الذكى الحصيف:

قال ونظراته الثاقبة تقرأ أفكارهم وملامح وجوههم:

"صفوا لى الحرب..

"كيف تقاتلون عدوكم؟؟!!

إنه [١] يريد أن يطمئن لكفاءتهم فى القتال، بعد أن اطمأن

---

[١] راجع كتابنا: "رجال حول الرسول" "العباس بن عبد المطلب ـ ساقى الحرمين".

لإخلاصهم فى الإيمان.

وأثار السؤال كوامن الاعتداد فـى صـدور الرجـال، فبـادر أحـد شيوخهم وهو عبد الله بن عمرو بن حرام بالجواب:

قال:

"نحن والله أهل الحرب.

غُذِينَا بها، ومرِنَّا عليها.

وورثناها عن آبائنا، كابرًا عن كابر".

ثم راح بعـد هـذه المقدمـة الحـارة المتحمِّسـة المنفعلـة، يصـف أسلوبهم فى الحرب.

"نرمى بالنبل حتى تفنى..

"ثم نُطاعِنُ بالرماح، حتى تُكسَر..

"ثم نمشى بالسيوف، فنضارب بها،

حتى يموت الأعجلُ منا، أو من عدونا".

وشاعت الغبطة فوق مخايل العباس، وقال:

"أنتم أصحاب حرب إذن..

فهل فيكم دروع..؟؟

قالوا:

نعم.. لدينا دروع شاملة"

ورأى العباس رضى الله عنه وعنـهم أجمعيـن ـ أنـه قـد هيـأ سُـبُـل الحديث ليواصله رسول الله، فيمم وجهـه صَـوبْ الرسـول فـى صمـت، وحنى رأسه فى إصغاء.

وتبسم الرسول، وعيناه الوادعتان توزعان ضياءهما وحنانهما على

أصحاب العقبَة المباركين.

وأومأ إليهم ليتحدثوا.

ولكن أصواتهم تلاقت على هذه الكلمات.

"تكلّم يا رسول الله.

فخذ لربك ولنفسك ما أحببت.."

وانفرجت شفتاه عن أصدق حديث.. وتدفق النور من بين ثناياه..

بدأ، فتلا بعض ما أنزل عليه من القرآن العظيم.. ثم راح يحدثهم عن الله، الواحد الذى لا شريك له، وعن الإسلام، الدين الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد.

ثم قال مُبايعًا:

"أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون

منه (أهليكم) وأبناءكم"..

وسارع "البراء بن معرور" فأخذ بيده الكريمة، وقال:

"نعم، والذى بعثك بالحق..

"لنمنعنّك مما نمنع منه (أنفسنا)..

"فبايعْنا يا رسول الله..

"فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر"..

ونهض "أبو الهيثم بن التَّيهان" فقال:

"يا رسول الله..

"إن بيننا وبين (اليهود) حبالاً، وإنا قاطعوها..

فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك

الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا..؟؟

فتهلّل وجه الرسول بابتسامة مشرقة وشاكرة، ثم قال:

"بل الدّم الدم..

والهَدْم، الهدم..

"أنا منكم، وأنتم مني..

أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.."

وعبارة "الدم الدم، والهدم الهدم" تعنى أن ذمتى ذمتكم، وحرمتى حرمتكم، وعهدى وعهدكم سواء.

تعنى: أن المحيا محياهم، والممات مماتهم..

ثم نهض "العباس بن عُبادة الأنصارى" فقال موجهًا الحديث إلى زملائه الأنصار:

"هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل..؟؟

يا معشر الخزرج..

"إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس.

"فإن كنتم إذا أنهكت أموالكم، وقُتل أشرافكم أسلمتومه، فمن الان.

"فوالله إن فعلتم لَهُوَ خزى الدنيا والآخرة..

"وإن كنتم وافُون له رغم نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة فصاحوا جميعًا:

"إنا نأخذه، على مصيبة الأموال وقتل الأشراف".

ثم نادى بعضهم:

"فما لنا يا رسول الله إن نحن وفيّنا بذلك؟"

وأجاب الصادق الأمين بكلمة واحدة:

"الجنة" ..!!

وفجأة تحول المؤتمر المستخفى، إلى مهرجان يدوى فى جنباته هذا النداء.

"ابسط يدك يا رسول الله نبايعك"

وتسابقت الأيدى إلى يمينه المباركة تشدُّ عليها فى ميثاق عظيم، وحُب حَميم.

***

وتقدمت عبقرية التنظيم التى تتمتع بها شخصية الرسول الكريم تقدمت لتكمل العمل المجيد.

لقد ألقى الرسول نظرة على هذه الطليعة المبشرة الواعدة..

لقد كانوا فى حساب العد ثلاثة وسبعين رجلاً، وسيدتين.. ولكنهم فى حساب القيمَة طلَعُ أمة عظمى تتشكل الآن وتتكوَّن.!!

وحتى لو نظرنا إليهم بحساب العدد وحده، فإن الرسول بفطنته وبمقدرته لا يدع هذا الرُّعِيل خارج دائرة النظام المحكم الفعَّال.

هنالك قال لهم:

"أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبًا،

ليكونوا على قومهم بما فيهم".

واختاروا اثنى عشر نقيبًا، سيكونون مسؤولين، لا عن بقية أصحابهم من الخمسة والسبعين فحسب.. بل وعن المؤمنين القادمين مع الأيام ممن سيفتح الله صدورهم للإسلام عمًا قريب..

وكانت حكمة بالغة ومقصودة من الرسول، إذ فوَّض إليهم اختيار

النقباء.

كما كانت حكمة بالغة ومقصودة أن جعلهم اثنى عشر نقيبًا حتى يوسّع دائرة النفوذ والمسؤولية، وينفى عنها وطأة التفرُد والتركيز.

***

تمت البيعة.. وتم اختيار النقباء وشهد الليل الهادئ الصامت ذلك المؤتمر الفريد المجيد.. ولم يبق إلا أن يعود المجتمعون إلى خيامهم، مُتسللين كما جاءوا تسلُل القَطا، قبل أن يَشِيَ بهم ضوء الفجر وتباشير الصباح.

وهكذا دعاهم الرسول للرجوع إلى رحالهم.. لكن وقدة الحماس للحق، شقَّ عليها أن تُرجئ يوم الفصل والصدام، فصاح العباس بن عُبادة الأنصارى قائلاً:

"والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مِنى غدًا بأسيافنا".

فقال الرسول فى هدوء:

"لم نُؤمر بذلك..

"ولكن، ارجعوا إلى رحالكم".

إن ضبط النفس، كان من أروع مزايا الرسول الكريم، ولقد شهدنا وسنشهد تألق هذه المزية فى كل المواقف التى تطلبتها فألْفَتْها دائمًا مهيأة للعمل الحكيم العميم.

لقد عاد القوم إلى خيامهم قبل أن يرسل الفجر نوره الكاشف، وطلع النهار، فإذا قريش تتهامس بما كان، وعلا الهمس حتى صار خبرًا أمضَّ أنفسهم وأزعج أمْنَهم، فخفَّ بعض زعمائهم سراعًا إلى خيام الخزرجيين.

"يا معشر الخزرج..

"إنه بلغَنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا..

"وإنه ما من حَيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم".

وفوجئ مشركو الخزرج بالنبأ، فراحوا يقسمون ما حدث من ذلك شيء.

ولقد صدقوا.. فهم أنفسهم لا علم لهم بما حدث بالأمس. لقد غادرهم المؤمنون منهم بعد أن ناموا، وعادوا إلى الخيام قبل أن يستيقظوا..آخذين مضاجعهم بينهم كأن لم يبرحوا..!!

وعاد زعماء قريش يجترّون الحيرة والشك، ولكنهم واصلوا بحثهم حتى تأكد لديهم النبأ العظيم، فطار صوابهم، وخرجوا فى أعقاب الحجيج الذين كانوا قد بدأوا رحلة العودة إلى بلادهم بعد أن أدوا شعائر الحج ومناسكه.

كان الركب قد أوْغل فى الطريق، فلم يدرك القرشيون منهم سوى اثنين هما: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.. وكانا من النقباء الاثنى عشر.

فأما المنذر، فقد قاوم واستطاع الفرار منهم.. وعادوا إلى مكة بسعد بن عبادة يضربونه ويعذبونه، حتى اكتشفوا أنه من زعماء الخزرج، وأنه طالما حمى لهم قوافلهم الغادية إلى الشام والرائحة منها، فأطلقوا سراحه وتركوه يرحل عنهم فى سلام.

***

وهكذا تلقت قريش أُولى الضربات المربكة والموجعة.. وجَّهها إليها في هدوء وصمت وقوة، رسول الله الذي طالما اتخذوه هو وأصحابه هدفًا لأحقادهم واضطهادهم.

لقد عاشت قريش اثنى عشر عامًا توجه ضرباتها في تَشف وغرور، واليوم يجيء دورها لتلّقى ضربات القصاص العادل المشروع.

ها هو ذا بلد حافل يفتح ذراعيه ليكون وطنًا آمنًا للدين الجديد الذي ضاقت به قريش وازْاورَت عنه في جهالة وعِناد.

وغدًا، يهاجر إلى هذا البلد الودود، المؤمنون من أهل مكة، ريثما يلحق بهم بعد غد رسولهم الحبيب.

وهناك تتحرر حركتهم من كل قيد.. وللمدينة استراتيجية هامة، فهي تمسك بناصية الطريق الذي تجتازه قوافل مكة التي تغدو بتجارتها وتروح بين مكة والشام.

ودارت الأرض بقريش وهي تدير خواطرها حول هذه المفاجأة التي أذهلتها، والاحتمالات الخطيرة التي تفزّعها.

وراحت تقاوم هجرة أصحاب الرسول، لكنها غُلبت على أمرها

وأخيرًا عقدت عزمها المخبول على اغتيال الرسول.. ولكن الله مُتمٌ نوره ولو كره الكافرون.

***

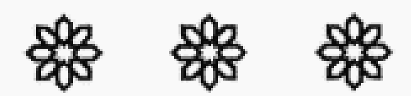
لقد أنجز الرسول يوم العقبة عملاً تناهى في البراعة، والحنكة والسَّداد.

لقد فَضَّ لِقاء العقبة وبيعتها ذلك السامر الطائش الذي ظلت قريش تملؤه طوال اثنى عشر عامًا بسخرياتها العابثة من دين الله

ورسوله، والمؤمنين.

والآن.. ومع بزوغ يوم العَقَبَة فى تاريخ الإسلام، فلن يكـون لقريـش سامر، وستموت بَسَماتها المغرورة فوق شفتيها..!!

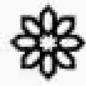
أجل.. لن تتلهىٰ قريش بعد اليوم بعــذاب ضحاياهـا، بـل ستشـغل بالخطر الزاحف، يحمل لقُوى الشرك فيها مصارعها ومناياها.!!

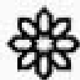


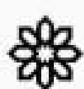
(٥)

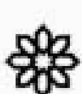
يوم حمزة

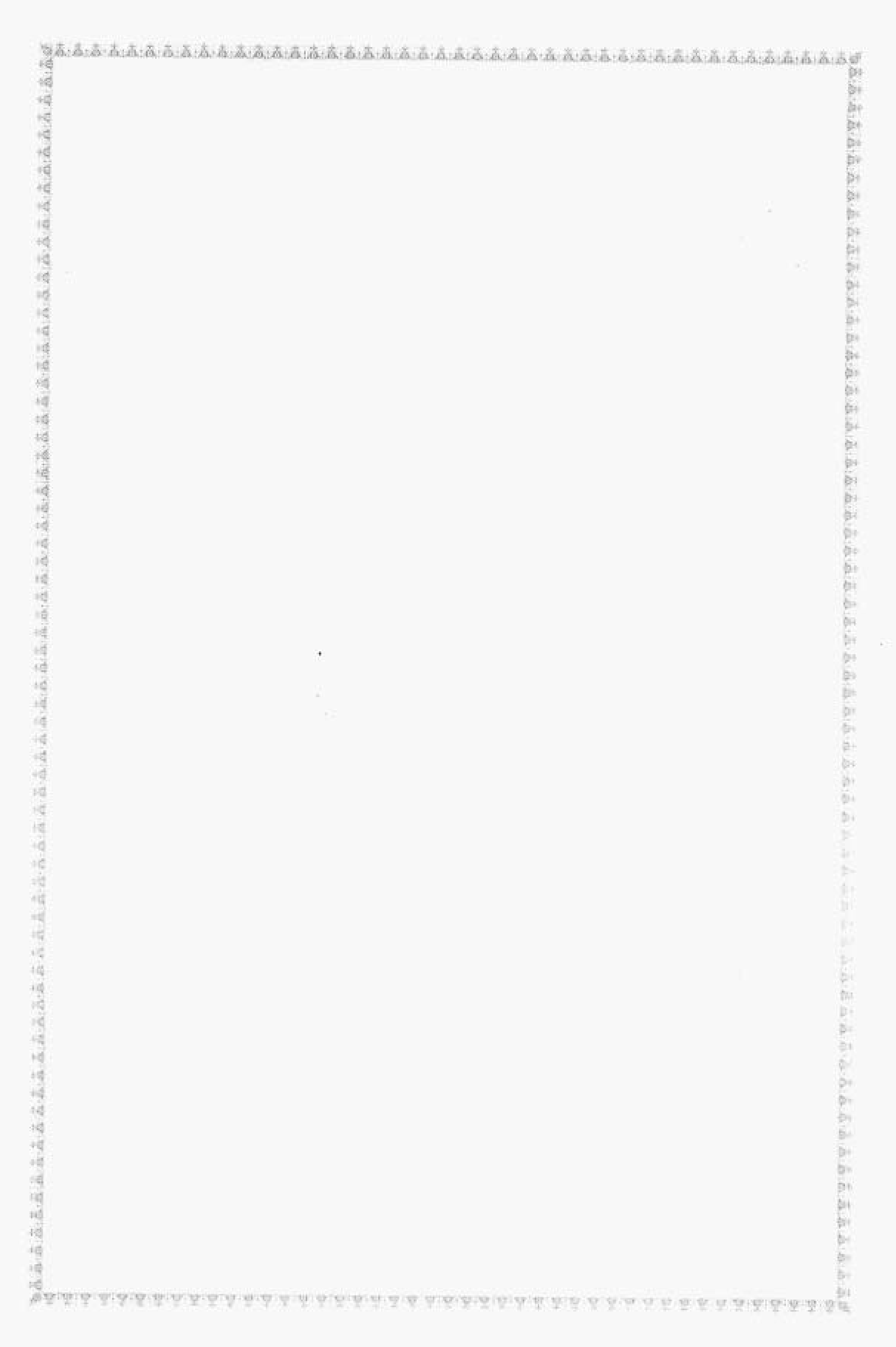
﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فبإذن الله﴾











ذاك يوم يصعب وصفه.

يوم مشحون بكل ما هو مؤلم، ومُعَلّم، ومُثير..

ويوم "حمـزة" هـذا، كمـا نسميه الآن، هـو المعـروف فـى تـاريخ الإسلام بيوم "أُحُد"..

وإنما ننعته هنا بيوم "حمزة" لأن غزوة أُحُد ليسـت غـرض حديثنـا فى هذه الصفحات.. إنما غرض الحديـث وموضوعـه واقعـة مـن أكـثر وقائع هذه الغزوة وذلك اليوم إثارةً للوجدان التاريخى وأكثرهـا دلالـة على شخصية الرسول وطبيعة الرسالة.

هذه الواقعة المتمثلة فى مصرع "حمزة" واستشهاده، وفى الضـراوة البَشعَة التى تشفّت بها أحقاد قريش من جثمانه..

ثم من مشهد الرسول وهو يرى جثمان عمه الحبيـب مبقـور البطـن ممزق الإهاب.

ثم..

ولكن لا، فلنعد للحديث من أوله ومُبتكَره.

لقد هاجر الرسول إلى المدينة، وبيـن أهلـها الأنصـار المبـاركين استقر هو وأصحابه، متخذاً من المدينة عاصمةً لدينه ولأمته الجديدة.

لقد صار المؤمنون بعيدين من سياط قريش وعذابها، لكن ذلك لم يكن يعنى أن المصاعب هادنتهم، فما أبعد هدنة المصاعب عن أصحاب المبادئ والرسالات.

لقد كانت أعظم مزايا الهجرة فى أيامها الأولى أنها قدمت لهم وطنًا يعبدون الله فيه دون أن يُفتنوا عن دينهم بإرهاب أو بعذاب.

أمّا بعد هذا، فقد كانت مشقات الحياة وسُنن التمحيص والابتلاء فى انتظارهم لتجعل منهم قدوة خفاقة، ووثيقة صادقة، تحكى للأجيال عَبْر الزمان: ماذا تعنى معارك الحق..؟ وماذا تتطلب من جُهد وشظفٍ وتضحية وفِداء..؟!!

لقد وجدوا المدينة حين قدموها تعانى من وباء الحمى، فأصابهم منها البلاء والسقم والرهق، فما تشاءموا ولا تطيروا.. بل قاوموا وصابروا..

وما كادوا يستقرون بالمدينة حتى أخذ يهودها ومُنافقوها يكيدون لهم ويسخرون منهم ويأتمرون بهم.

لقد شَنُّوا على الدين الجديد الحق، وعلى حَمَلة رايته من المهاجرين والأنصار ـ والمهاجرين بصفة خاصة ـ حرب أعصاب سافلة وماكرة، بيد أنهم كانوا عاجزين عن تصعيد حرب الأعصاب ومناورات التشكيك إلى حملات اضهاد وتعذيب كما كان كفار قريش يصنعون.. وهكذا، كان على الرسول أن يواجه فى المدينة سيلاً لا يُـؤذِن بانتهاء من مناورات أحبار اليهود وزعمائهم رغم ما أعطاهم من عهد وأعطوه من ميثاق.. وسيلاً من لغو المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام.

﴿يخادعون الله، وهو خادِعهُم﴾

ووقف الوحى لهؤلاء ولأولئك بالمرصاد يكشف خبـأهم، ويفضـح مكرهم، ويشدُّ يقين المؤمنين.. ويزيد الذين اهتدواْ هُدًى.

وبين الحين والحين، كانت قريش ترسل بعض طلائعـها يتشمّمون أخبار المدينـة، فكـان الرسـول يبعـث إليـهم ببعـض السـرايا، تفـضُ جمعهم وتردهم على أعقابهم.

حتى جاء يوم "بدر".. والتقـى الجمعـان فـى معركـة كـبرى دارت الدائرة فيها على قريش.

لقد جاءت تحت إمـرة زعمائـها فـى ألـف مُقـاتل، كلـهم مُـدَرَّب ومُسلَح، تريد غزو المدينة والإجهاز على قُوى النور والخير البازغة فـى أفقها الرحيب.

وخرج المسلمون بقيادة نبيهم فى ثلاثمائة وثلاثة عشر من الرجال، ليس لأكثرهم من الدربة ولا معهم من العتاد مثلما كـان للقـوة الغازيـة ومع هذا، استطاع الإيمان أن يفوز بعـون الله ونصـره.. والإيمـان الـذى ملأ قلوب القلة المؤمنة، وهى تسمع نبيّها يقول مناجيًا ربه:

"اللهم هذه قريش، قد أقبلت

بخيلائها وفخرها، تُحادُك وتكذب رسولك.."

"اللهم فَنصركَ الذى وعَدْتنى".

ثم وهى تراه يغادر خيمته متهللاً، يقول:

﴿سَيُهْزم الجمع، ويُولُون الدُّبر﴾.

صال الإيمان صولته المباركة، فترنّح الكفر وهوى البـاطل، وولّـت قريش الأدبار مخلفة تحت تراب الأرض التى دار فوقـها القتـال جثـث فريق من زعمائها الذين أصْلوا المؤمنين المستضعفين عذابهم.

جاءت قريش إلى غزوة بدر يتقدم صفوفها الزاحفة - أبو جهل، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف.. وعادت أدراجها تاركة هؤلاء جميعًا جثثًا تقبع في ردم القليب، وتاركة معهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيرًا.

عادت تلعق هزيمتها المنكرة.. وعادت أحقادها تستغويها من جديد، فقضت عامها كلُه تُعد نفسها وبأسها لغزو المدينة والظفر بالإسلام والإجهاز الكامل على الرسول وصحبه.

وفي نفس الموعد تقريبًا، خرجت بأسرها، ومعها أفواج من بني كنانة وأهل تهامة.. واصطحب أكثر المقاتلين نساءهم معهم ليبتعثن فيهم كل حفيظة وضراوة وإصرار.

وكانت غزوة "أُحد".. وكان يومها الرهيب..!!

***

انتظم الجيش القرشي ثلاثة آلاف، يقود المشاة أبو سفيان ويقود الفرسان "خالد بن الوليد".

وخرج الرسول على رأس ألف من المسلمين تناقص عددهم في منتصف الطريق إلى سبعمائة عندما عاد "عبد الله بن أُبيّ" زعيم المنافقين - وكان قد أسلم نفاقًا بعد الانتصار العظيم الذي أحرزه المسلمون في غزوة بدر - عاد ومعه ثلاثمائة، أغواهم فأطاعوه..!!

أخذ جيش الشرك مواقعه.. وصَفَّ الرسول أنصاره المؤمنين جاعلاً ظهورهم إلى جبل أحد، واضعًا خمسين من الرماة فوق إحدى الروابي العالية ليحرسوا ظهور المسلمين، وليطردوا بنبالهم المشركين إذا همُّوا بمباغتة المسلمين من وراء، حيث كانت بالجبل ثغرة عريضة

يستطيع المشركون لو نفذوا منها أن يُلحقوا بالمسلمين أذى كثيرًا.

وبدأ القتال واحتدم أوارُه، ودارت الدائرة علــى القرشيين ولاذت جموعـهم بـالفرار، وراح المسـلمون يجمعـون الغنـائم التـى تركـــها أعداؤهم، ونسى الرماة أمر الرسول لهم ألاّ يبارحوا موقعهم مهما تكــن نتيجة القتال.. فهبطوا الوادى يشاركون إخوانهم بهجـــة النصـر وجمـع الغنائم والأسلاب.

وفجأة لوى قائد فرسان قريش يومئذ ـ خالد بن الوليد ـ عنان فرسه وتبعه مائتا فارس، فنفذوا كالسهام من الفتحة التى بالجبل والتى كـــان الرماة يحرسون مدخلها.

بـاغت الفرسـان المسـلمين مـن ورائـهم، وأعملـوا فيـهم الطعـــن والضرب، ورأى المشاة الذين كانوا قد غادروا المعركة هـاربين.. رأوا ما احدثه فرسانهم، فعاد بهم قائدهم يومئذ ـ أبو سفيان ـ.. وهكذا وقع المسلمون بين حصار رهيب.. ودارت المعركة من جديد، ولكنها كانت فى جولتها هذه لحساب قريش التى استغلت هذا التفوق المواتى أبشع استغلال..

***

أين كان "حمزة" فى ذلك اليوم الرهيب..؟؟

كان هناك وسط أصحابه ورفاقه، يقاتل ويقاتلون فى استبسال مروع وعجيب.

لقد قاتل المؤمنون جميعًا يوم أحد، كما لم يقاتلوا من قبل، ومــن بعد..!!

أبو دجانة.. ومصعب بن عمير.. وحنظلة بن أبى عامر.. وعـــاصم بـن

ثابت.. وعلي.. وأبو بكر.. وسعد.. ونسيبة بنت كعب.. وطلحة.. والزبير.. والحارث بن الصمة.. وجميع الذين وقفوا فوق أرض المعركة من أصحاب القرآن ومحمد.. قاتلوا قتالاً، نكاد ونحن نقرأ أخباره، نبصرهم ونبصر عنفوانهم ونسمع صياحهم وهتافهم..!! وكان "حمزة" بن عبد المطلب" مع هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله.. كان معهم يصول ويقاتل لا تخطئه العين أبدًا، فهو معروف بسيماه. وريش النعام يزين به صدره كعادته كلما خاض معركة وقتالاً.

كان يغيظه مشهد لواء قريش وهو يخفق في سماء المعركة ومن ثم ركَّز على حَمَلته، فكان ينفذ إليهم كالصقر، ويرديهم قتيلاً إثر قتيل

رأى عثمان بن أبي طلحة يحمل ذلك اللواء. وينشد شعر المباهاة والخيلاء، فشق الصفوف إليه. وضربه بسيفه فأرداه، وسقط لواء قريش تحت الأقدام.

ومرق "حمزة" كالسهم وسط الملحمة، لا تنبو لسيفه ضربة ولا تتخلف المنايا عن عزمه.

ومرة أخرى يبصر لواء قريش يرتفع، فيشق الصفوف إلى حامله أرطأة بن عبد شرحبيل، فيرديه قتيلاً، ويتمرغ اللواء من جديد في التراب اللزج بدماء المشركين.

ويعود إلى قلب المعركة ليصب المنايا بسيفه المطيع على أعداء الله ورسوله..!!

ويبصر خلال لفتة سريعة، مشركًا ينحني فوق راية قريش يريد أن يرفعها من الأرض لتخفق في يده من جديد؛ فيكون أسرع إليه من أنفاسه المترددة في صدره.. وقبل أن يرفع الراية فوق ساريتها يكون

سيف "حمزة" قد كومه بجوارها على الأرض الموحلة بالدماء.

حقًا إنه لكما وصفه الرسول (أسد الله وأسد رسوله)..

إنه ليبلى أصدق البلاء وأروعه، ويواجه بأس قريش بفؤاد ملؤه اليقين، وإرادة يشحذها العزم، وسيف لا يعرف الكلال.

***

ولكن قريشًا عندما كانت تجتر أحزانها وعارها يوم بدر ثم حين خرجت على بكرة أبيها إلى غزوة أحد، كانت قد وضعت نصب تدبيرها وخطتها أن تظفر باثنين . وليكن بعد ذلك ما يكون.

أما الاثنان فهما: الرسول.. وعمه حمزة..

بل إن احتمال يأسهم من الظفر بالرسول، الذى يعرفون مدى حب أصحابه له وافتدائهم إياه، جعلهم يركزون بتخطيطهم وتدبيرهم على الظفر بـ "حمزة" رضى الله عنه وأرضاه.

ولقد رسموا كل الخطة التى تمكنهم من رأسه وهم بمكة قبل أن يغادروها، واصطنعوا لذلك واحدًا من أمهر الرماة، بل لعله يومذاك كان أبرع من يضرب بالحربة فيصيب على الفور مقتلاً.. ذلكم هو "وحشى" غلام جبير بن مطعم.

كان عبدًا رقيقًا من الحبشة، فوعدوه بعتقه وتحريره إن هو قتل "حمزة".

وتقدمت هند زوجة أبى سفيان ـ وكانت قد فقدت فى بدر أباها، وأخاها، وابنها.. تقدمت من "وحشى" تزغلل عينيه بالذهب البراق الذى يُحلى معصميها وجيدها.. حتى إذا رأت لعابه يسيل وعينيه تنبهران لمجرد بريقه ـ فهو لا يطمع فى امتلاك هباءة منه ـ ألهبت هند

أمانيه وأوقدت نار طموحه إذ خللت بهذا الحلى الكثيف أصابعها فصلصل وجلجل، وقالت لوحشى وعيناها على عينيه تستل منهما إرادته ووعيه:

ـ [كل هذا لك، إذا أنت قتلت حمزة].!!

وخرج وحشى معهم إلى الحرب، بعد أن أوصوه ألا دور له فى المعركة سوى "حمزة".

وفى المعركة، وعلى أرض القتال كان حمزة كما شهدنا من قبل يصول ويقاتل ويجندل بالمنايا الماحقات أعداء الله وأعداء رسوله.. وتتكسر قبل أن تبلغه سيوف المشركين الذين كانوا يحاولون مستميتين أن يصيبوه ولو بجرح يَقِفُ نهمه.. أو كسر يثلم سيفه..!!

ولكن كان هناك رجل فارع الطول يقبض على حربته المتحفزة ويتجنب مهاوى السيوف التى يضرب بها المسلمون، وعيناه على "حمزة" تغوصان وراء ووسط الطوفان المتلاحم وتطفوان ـ ولكما أفلت منهما مَرآه توقَّل الرجل مكانًا عاليًا ليتابع بعينيه المتلصصتين فريسته وصيده.

يقول واصفًا لحظات من ذلك المشهد:

"... ووالله إنى لأنظر إلى حمزة، ينطلق فى عَرض الناس، مثل الجمل الأورق، يَهُدُّ الناس هَدًّا، ما يبقى على شىء، فتقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، فصاح به "حمزة" هَلُمَّ إلىَّ يا بن مُقَطِّعة البُظور.. وضربه ضربة، فما أخطأ رأسه.

"وعندئذ هززت حربتى، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، فوقعت فى ثُنَّته ـ ما تحت سُرَّته ـ حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوى

فغُلب على أمره ووقع وأمهلته حتى مات، فجئـت وأخـذت حربتـى، ثـم تنحيت عن القتال.. فما كان لى بعده حاجة" ..

***

ومضت المعركـة إلـى نهايتـها المقـدورة ـ سـيوف تـهوى ورمـاح تقذف.. وصرعى يسقطون.. لا يُعرف من سقط ومـن بقـى، حتـى استنفد اليوم الرهيب جولتين.. الجولة الأولى التى شهدت انتصار المسـلمين، والجولة الثانية التى غشيتهم فيها محنة تتحدى كل احتمال.

أجل، كانت محنة قاسية.. بيد أنها لم تكن هزيمة؛ فما هزم الرسول فى حياته أبدًا.

لقد وعده الله بنصره دومًا .. ولقد صدق وعده دومًـا . والـذى حـدث فى "أحد" لم يكن شيئًا نقيض النصر.. لم يكن هزيمة أبـدًا بـأى معيـار من معايير الحروب منذ عرفت الأرض الحروب حتى أيامنا هذه..

ويُسعدنى أن أعزوَ هذا الـرأى لصاحبـه شـاهدًا أننـى فرحـت بـه، واعتقدته، ورأيت فيه تصويبًا وثيقًا للفكـرة المغلوطـة السـائدة والتـى تصور ما حدث يوم أحد على أنه هزيمة.. نجهد قرائحنا فى البحث عـن تفسير وتبرير ينفيان عن الإسلام عارَها.

أما صاحب هذا الرأى السديد، فهو (مولاى محمد على) العلامـة الهندى، يعرضه فى كتابه "حياة محمد ورسالته [1]" ولأنقل نصَّ كلماته:

"... إن حالـهم ـ يعنـى المشـركين ـ لـم تكـن بأحسـن مـن حـال المسلمين.

"إنهم لم يجرؤوا على متابعة الحرب حتى النهاية خشية أن يُفضـى

---

[1] نقله إلى العربية الأستاذ منير بعلبكى، ونشرته دار العلم للملايين، بيروت.

ذلك إلى هلاكهم.

"وهكذا انقلبوا عائدين مسرعين إلى مكة، مجتازين عِدَّة أميال فى يوم واحد.

"وفى طريق عودتهم تساءلوا عما إذا كان من حقهم أن يزعموا أنهم رجعوا ظافرين..؟!

"إنهم لم يكونوا يحملون أية غنيمة من غنائم النصر يعرضونها على أنظار شعبهم.

"ولم يكن لديهم أسير حرب واحد.

"أفيُعدُّ هذا نصرًا..؟؟

"وكان الجيش الإسلامى لا يزال مسيطرًا على ميدان القتال..

"وكان المشركون قد عجزوا عن احتلال المدينة رغم أنها تُركت بغير دفاع..

"أفيكون هذا نصرًا للمشركين..؟؟

"ولقد تعقَّب المسلمون عدوهم فى اليوم التالى نفسه حتى موضع "حمراء الأسد" على مسافة ثمانية أميال من المدينة ولكن أبا سفيان الذى اعتبر الحصافة خير عناصر الشجاعة نكص هو وجيشه على أعقابهم وولوًا هاربين حين بلغتهم أنباء المطاردة الإسلامية..

"إنه لَمِمَّا ينمّ عن جهل بالوقائع التاريخية أن يستنتج المرء أن المسلمين هُزموا فى معركة أحد..

"صحيح أنهم مُنُوا بخسائر باهظة، ولكن صحيح أيضًا وبالقدر نفسه أن قريشًا أُكرِهَت على العودة خائبة.

"وهل نقعُ فى التاريخ على حادثة انتصار واحدة ثُبِّت فيها العدو

المغلوب أقدامه فى الميدان، بينما انقلب الجيش المنتصر عائداً إلـى وطنه، ليس معه أسير واحد.. بل ويُولى الأدبار لَدُن سماعه نبـأ مطـاردة المسلمين له..؟؟!!"

***

لم يشهد المسلمون إذن تحت قيادة نبيهم الكريمة هزيمة أبداً..

ولم يكن الذى حدث فى أحد رغم فداحته ليشكل هزيمة بأى معيار من معايير الحروب.

فكما يقول "مولاى محمد على" ـ لم يكن هناك أسير واحد وقع فى أيدى المشركين.. ولم يحتلـوا مـن أرض الإسـلام شـبراً واحـداً. ولـم يحملوا معهم أيًا من غنائم الحرب.. وكذلـك يفرضـوا أى شـرط علـى المسلمين ولم يغيروا من واقع حياتهم شيئًا بل ووجـدوا أنفسـهم بعـد النصر المزعوم بساعات يغذُّون السير هاربين أمـام مطـاردة المسـلمين الذين ظن المشركون أنهم أوقعوا بهم الهزيمة والغلب..

كان الذى حدث إذن محنة لا غير، استرد المؤمنـون بعدهـا رباطـة جأشهم، وتوقُّدَ عزمهم، وأخذوا منـها الـدرس الـذى شـاء الله لـهم أن يتعلموه ويحذِقوه .

***

ولنْعُد لنبأ "حمزة" أسد الله وأسد رسوله [١].

لقد انتهت المعركة فى جولتها الثانية.. وقف الرسول بين أصحابـه يتهيأ لمعرفة الضحايا والمستشهدين.

كانت متاعب اليوم وأهواله قد أصابت الرسول بإعياء شديد وكان

---

[١] راجع المزيد عن شخصية "حمزة" وعظمة شمائله فى كتابنا: (رجال حول الرسول).

قد أصيب عليه السلام فكسرت رباعيته، وشج فى وجهه، وكلمت شفتاه. لكن ذلك كله كان هينا ومحتملا - قبل أن تبدأ قوائم الشهداء تتلى عليه. ثم قبل أن يأخذ طريقه إلى حيث صرع عمه حمزة ليرى أبشع جريمة ترسم على جسده الكريم وحشيتها..!!!

كان الرسول قد أرسل بعض أصحابه يجوسون خلال أرض المعركة ليحصوا له الشهداء ويعرفوهم.

وجاءه الصحابة بالأنباء.. وراح كلما سمع اسما من أحبائه وأصفيائه يحتسب عند الله أجرهم ومصابه فيهم - مصعب بن عمير.. سعد بن الربيع.. أنس بن النضر.. أبو سفيان بن الحارث.. حنظلة بن أبى عامر.. عبد الله بن عمرو بن جبير أمير الرماة الخمسين والذى ظل مكانه فوق الجبل حين هبط الرماة إلى الوادى يجمعون غنائم النصر فى الجولة الأولى.. عمرو بن قيس وابنه قيس بن عمرو..أوس بن ثابت.. عبد الله بن حرام.. عمرو ابن الجموح.. وعشرات من إخوانهم - مهاجرين وانصارا، ضمخوا (يوم أحد) بدمائهم الزاكية، وجادوا بأرواحهم فى سبيل الله، وفازوا برضوانه وجناته..

ورغب الرسول أن يراهم فى مصارعهم ومضاجعهم، فسار متحاملا على بعض أصحابه، عابرا بين الجثث المبثوثة ملقيا عليها سلام الله ورحمته، مودعا إياها بدعوات باكيات..!!

لكنه بدأ يتقزز ويجزع عندما أبصر بعضهم وقد مزقت أجسادهم ومثل بهم..

تُرى ماذا سيكون جزعُه عندما تبلغ به خطواته الوئيدة المجهدة مضجع عمه الحبيب "حمزة" فيرى بطنه مبقوراً .. وكبده منزوعة..

وأمعاءه مبعثرة..!!!

عليك صلاة الله وسلامه يا خير من حملت الأرض - ويا أبَرَّ من حملت الأرض..

عليك وعلى عمك الشهيد المجيد صلاة الله وسلامه.

وعليك وعلى آلك وأصحابك صلاة الله وسلامه وبركاته.

***

كانت قريش قد جُن جنونها حين أدركت أنها لم تحرز أى نصر.. فالرسول لا يزال حيًا مُعافى..

وأصحابه لا يزالون حوله أحياء صامدين..

والمدينة، لا تزال شامخة، لم يقتربوا حتى من مشارفها.

وأيديهم فارغة من كل ثمرات النصر.. فلا غنائم، ولا أسْرى.

إن كل الذى صنعوه بحملتهم التى حشدوا لها كل قواهم وأموالهم لم يزد عن مجزرة.

إن كل الذى فعلوه وهم ثلاثة آلاف، أمام سبعمائة لا غير، لم يزد عن قتلهم خمسة وستين من المسلمين.

فلتكن إذن "مجزرة" فوق مستوى ما ألف الناس والتاريخ من مجازر، حتى لو اقتضى ذلك منهم أن يلغوا كل رُشْدٍ لهم، وأن يتخلوا عن أبسط مبادئ الشرف والرجولة عند العرب بل وعند الأعراب.

وهكذا راحوا يقترفون جريمة المُثْلَة، وهى جريمة منكرة حتى بمعايير الجاهلية نفسها..!!

وطبيعى أن يكون البطل الماجد "حمزة بن عبد المطلب" صاحب الحظ الأوفى من جريمة قريش النكراء..!!

وهكذا رآه الرسول حين رآه..

مَزَّقوا جسده.. بَقَروا بطنه.. انتزعت هند زوجة أبى سفيان كبده وراحت تلوكها فى شماتة.. وانتزعت أمعاءه وجعلت من بعضها قلادة طوقت به عنقها.. وجَدَعَتْ أنفه وأذنيه..!!

ومهما يكن حلم الرسول واستسلامه لأمر ربه، فقد كان بحاجة إلى ملء الأرض طاقة كى يستطيع أن يحتمل المشهد الذى تتصدع من هوله الجبال.!!

لقد كظم غيظه.. ولكن إلى متى ..؟ كم من الدقائق، بل من الثوانى يستطيع بَشر مهما أوتى من القداسة أن يكظم غيظه أمام مشهد كهذا..؟!

ولقد أسْبل جفنيه فى أسى ومضض.. ولكن أكان إسبال الجفنين قادرًا على إلغاء الحقيقة الصارخة والمشهد المزَلْزِل..

لك الله، يا رسول الله..

لك الله، يا نور الحياة وشرَفها.. يا خير الخلق، ويا خاتم المرسلين..!!

***

وقف الرسول يُغالب فى نفسه وقْع المشهد وأساه، ثم قال وعيناه على جثمان عمه الحبيب:

"لن أصاب بمثلك أبدًا..

وما وقفتُ موقفًا قط اغيظُ إلىَّ من موقفى هذا" ..

ثم توالى على خاطره حشد الذكريات.. فحمزة لم يكن عم الرسول فحسب. بل هو كذلك تِرْبه.. قضيا معًا طفولتهما وشبابهما، ثم هو

كذلك أخوه فى الرضاعة.

توالت الذكريات كلها على خاطر الرسول، ومرت أمام مخيلته فى موكب طويل.. لم تغب منها ذكرى واحدة.. لكأنما جاءت تودع صاحبها، وتقدم للرسول العزاء..!!

تذكر روعة بأسه.. وجلال أمسه..!!

وكأنما ساءل نفسه، أو ساءلته الذكريات. أحمزةُ مَن يُصنع به هذا..؟؟

تُرى أىّ عزاء يُقدم للجسد الممزق وأى تعويض..؟

وقال الرسول - وعيناه تلفّان جسد عمه بأساهما العميق، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذرة:

"لولا أن تحزن صفية - أخت حمزة وعمة الرسول - ولولا أن يكون سُنة من بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير..!!"

أجل.. فما فى الأرض مكان يتسع لوقدة الثأر الذى يهتف به الجسد الممزق المفدوح.

أما بطون السباع، فلعلها المكان المناسب لرفات الأسد..

ثم تابع الرسول قوله فقال:

"ولئن أظهرنى الله على قريش، فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم".

فصاح أصحابه:

"والله، لئن أظفرنا الله بهم من الدهر، لنُمثّلن بهم مُثلةً لم يمثلها أحد من العرب".

وهنا يستكمل "يوم حمزة" جمالة وجلاله، وتتبدّى حكمة الله فى

كل ما حدث خلال اليوم للرسول وأصحابه..!!

فلا يكاد الرسول والمسلمون يفرغون من إلقاء وعيدهم هذا، حتى تنزل الوحى من فوره:

﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن.. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

﴿وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به.. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين.

﴿واصبرْ، وما صَبرُك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تُك فى ضيق مما يمكرون.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون..﴾

إن الوحى كان هناك يرقب كل شىء ويسمع كل شىء.

وإن القدر ترك الأمور فى ذلك اليوم تجرى لمصيرها التى انتهت إليها لحكمة بالغة.

وهاهو ذا يجعل من جسد الشهيد بكل ما أصابه من مُثلَة وتشويه موضوع درس اليوم العظيم، ولتكن أشلاؤه المبتورة والممزقة وسائل إيضاح..!!

انظروا.. أيها المؤمنون.. يا من تقفون هنا حول رسولكم ويا من ستجيئون عبر الأجيال إلى آخر الزمان..

هذا هو حمزة.. عم الرسول..

أكان الله عاجزًا عن استبقاء حياته..؟؟

وهذا هو جسده الممزق..

أكان الله عاجزًا عن حمايته من التمزيق والتشويه..؟؟

أبدًا..

فلماذا إذن حدث هذا الذى يهزكم ويزلزلكم..؟؟

إن رسول الله هنا ليعلمكم..

ومنه ومن أهل بيته الأبرار يختار القدر نماذج التثقيف والقدوة.

وما دام الحق بحاجة إلى تضحيات تحميه وتفتديه، فإن التضحيـة إذن هى شرف الإنسان وشرف الحياة.

وما دامت التضحية شرفًا، فيجب أن يصرف النظر عن الشكل الذى يفرضه عليها الاضطهاد والبغى [1].

فالتضحية ليست حفلاً ساهرًا.

وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سـليم، أو يقضـى وجسـده ممزق.

كل ذلك، وأكثر من ذلك يغطيه شرف التضحية ويحـوّل أسـاه إلـى مجد.. وفواجعه إلى بطولات..!!

وانظروا.. يا أيها المؤمنون.

هذا رسولكم البشَر يغلبه غيظ الحليم، فيتوعد المجرمين بأن يمثل بثلاثين من قتلاهم حين يظفر بهم غدًا، أو بعد غد..

فهل تركه الله يردد وعيده..؟؟

أبدًا..

لقد سمع الله قوله.. وفى مثل لمح البصر كان الوحى يقول لـه: لا.. عاقبوا بمثل ما عوقبتم به..

﴿ولئن صبرتم لَهُو خير للصابرين﴾

---

[1] راجع كتابنا "أبناء الرسول فى كربلاء" الفصل السابع.

تالله، ما أروع الدرس وأبهاه..

فحتى فى مواطن القتال والحرب، يستهل الله كلامه إلى رسوله بقوله سبحانه:

﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ .

وفى موطن القتال والحرب، لا يقول الله لرسوله ﴿وقاتلهم بالتى هى أحسن ﴾.

بل يقول سبحانه:

﴿وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾.

مؤكداً بهذا طبيعة دوره وجوهر رسالته.. إنها النبوة تنقل إلى الناس هُدى الله بالكلمة الطيبة المقنعة.. وليست الحرب تفرض نفسها بالسيف والرمح.

وإذا كان الرسول قد اضطر للحرب، فلأن أعداءه وأعداء دينه صنعوا الظروف التى جعلت الحرب ضرورة.

وبانتهاء الضرورة واختفاء ظروفها يعود النبى لجوهر دَوْره ووظيفته ورسالته [١]

***

هنا يتجلى صواب اختيارنا هذا العنوان "يوم حمزة" عنوانًا على "يوم أُحد" بأجمعه..

فمصرع حمزة، والدروس التى أفادها مصرعه كانت مركز الثقل فى أحداث اليوم كلها.

---

[١] راجع كتابنا "كما تحدث القرآن".

كل ما حدث دون مصرعه والتمثيل به وبإخوانه البررة كان يمكن أن يأخذ مكانه بين ما هو محتمل ومألوف.

فقريش كما سبق لم تحرز نصرًا.. والمسلمون كما سبق لم تنزل بهم هزيمة.

لقد استشهد منهم خمسة وستون.. وقتل من قريش اثنان وعشرون.. أى أن كل حظ قريش من المعركة التى أعدّت لها عامًا بأكمله ورصدت لها كل قواها وبأسها ـ كان ثلاثة وأربعين قتيلاً من المسلمين.

ومجرد هذا الرقم من الضحايا أو حتى ضِعْفه أو أضعافه، لا يشكل نصرًا للضارب ولا هزيمة للمضروب..

فما الذى جعل من يوم أُحد معلمًا على الأسى فى عصر الوحى بأجمعه..

وما الذى أعطاه بين غزوات ذلك العصر وأيامه طابعًا مميزًا وأهمية فريدة..

إنه إذا استثنيناء ما وقع للرسول من إصابات، لم تحدث له قط ولم يتمكن من مثلها أعداؤه أبدًا إلا فى هذا اليوم..

أقول: إذا استثنينا هذا الذى حدث للرسول، لم يبق هناك ما يرمز ليوم أحد بنبض قوى مثل مصرع حمزة وما أفاءه من تجارب ودروس.

لقد قال الله لنبيه يومئذ:

﴿لئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾

ولقد صبر الرسول مفوضًا لله أمره ومصيره.

فماذا حدث..؟؟

ماذا حدث مما يمكن أن يكون مثوبة لصبره فى هذا اليوم بالذات.

ومما يمكن أن يكون تعويضًا مباشرًا عن حمزة ورفاقه الشهداء؟؟

حدث شىء عجيب..

فخالد بن الوليد قائد الفرسان يوم أحد - والذى تسبب فى الكارثة كلها وحوّل نصر المسلمين إلى محنة حين باغتهم بفرسانه من الوراء..

"خالد" هذا بكل عبقريته وجبروته، قدّمته الأقدار هدية مباركة للرسول وللإسلام وللمسلمين.!!

فبعد غزوة أحد بعامين اثنين، كان (خالد بن الوليد) يأخذ مكانه بين الذين قاتلهم بالأمس مؤمنًا أوابًا، وجنديًا مطيعًا.

أجل.. كان عبقرى الحرب وعملاقها يجلس عند قدمى رسول الله ﷺ، يتفجر حبًا وولاء وإخلاصًا.

ولنتصور الآن: لو أن الرسول والمسلمين ظفروا فى موقفهم المغيظ "يوم حمزة" بخالد بن الوليد، وقتلوه ومثلوا به، فمن ذا الذى كانت عبقريته ستهيل عرش كسرى وقيصر..؟؟

من الذى كانت جنوده ستمضى كالقدر، زاحفة صوب العالم القديم، رافعة فوق أنقاضه راية القرآن والإسلام..؟؟

من ذا الذى كانت تدخره الأقدار لكل ما تم على يد (خالد) من فتوح ومعجزات..؟؟

أولم يقل الله لرسوله يومها:

﴿ولئن صبرتم، لهو خير للصابرين﴾..؟؟

ولقد صبر

وها هو ذا الخير يأتيه فى موكب عريض.. فبعد إسلام خالد

وعمرو بن العاص، تتوالى انتصارات الإسلام.. فاليهود تخيب كل مساعيهم ضد الدين القويم، ويجلون عن المدينة وما حولها.. وغداً، تفتح مكة، وتستسلم قريش بأسرها، ويسارع أبو سفيان قائد جيش الشرك فى غزوة أحد وسواها.. يسارع إلى خيمة الرسول نادمًا يعلن إسلامه.. وبعد غد تدخل الجزيرة كلها فى دين الله أفواجًا، ويتم الله نوره..!!

كل هذا المستقبل الباهر العظيم، تَلقَّى الرسول والمسلمون بُشراه فى نفس ذلك اليوم الذى غشيتهم فيه الفجيعة والأحزان.

ذلك اليوم الذى ناداهم الله فيه وصدورهم تتحرق غيظًا ونقمة.

قائلاً لهم:

﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾

فحنوا جباههم لدعوة الله، واحتسبوا لديه زعيمهم الجليل حمزة واحتسبوا لديه رفاقهم الأبرار شهداء اليوم الرهيب.

أجل.. لقد نقض الرسول عن خاطره فكرة الثأر فى نفس اللحظة واحتسب عمه الحبيب بكل ما أصابه عند الله.. حتى حين رأى بعض نساء الأنصار يبكين حمزة ويذكُرْنَ مناقبه ظنًا منهن أن ذلك يُثلج صدر الرسول، نهاهن وأمرهن بصمت جميل.

بل وحتى حين رأى عمته (صفية) مقبلة نحو جدث أخيها الشهيد، خشى أنّ يغلبها الحزن والفجيعة فتتصرف بطريقة تنقص ثواب الاحتساب.

هنالك طلب من ابنها (الزبير بن العوام) أن يلقاها ويرجع بها حتى لا ترى ما أصاب أخاها.

ووقف الرسول عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام.. وقف ملقيًا سمعه لحديث الزبير وامه صفية، فسمعه يقول لها :

"إن رسول الله يأمرك أن ترجعى"

وسمعها تجيبه:

"ولِمَ أرجع وقد بلغنى أنه مُثِّل بأخى..؟؟

"وذلك فى الله، فما أرضانا بقضائه"

"لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.."

وكانت هذه الكلمات عزاء جميلاً أبهج الرسول فنادى الزبير:

"خلِّ سبيلها يا زبير".

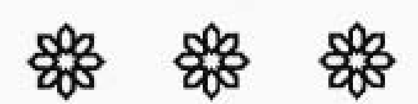
وجاءت، فسلمت على أخيها وصلّت عليه واستغفرت له ومضت فى سلام.

***

ودفن (حمزة) بعد أن صلى عليه الرسول مرة واحدة.. ثم مرات كثيرة بعدد الشهداء الذين كانوا يوضعون بجوار (حمزة) فيصلى عليهم الرسول شهيداً بعد شهيد.

وثوى البطل العظيم بين رفاقه العظام.

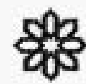
وعاد الرسول وصحبه إلى المدينة ليستأنفوا تبعاتهم الجليلة، وليواصلوا أعباءهم المتجددة فى مسيرة الإسلام.

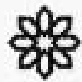


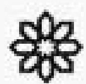
(٦)

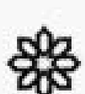
يوم الحديبية

﴿فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا.. فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾











أى يوم مثير..وأى يوم مبشر.. وأى يوم باهر القسمات رائع الدلالة، كان هذا اليوم..؟؟!

إنه ليكاد يكون نسيج وحده فى الكشف عن جوهر الرسول وجوهـر الرسالة وجوهر المؤمنين.

فلا نكاد نعرف يوما وضع إيمان الصحابة موضع الامتحـان الشـاق والشاهق، كهذا اليوم..

ولا نكاد نعرف يوما جلى حقيقة الرسول كأب للســلام والمرحمـة، وجلى حقيقة الإسلام كأطيب مناخ للسلام والمعدلة كهذا اليوم..

كذلك، فإن المسافة التى لا منتهى لها، والتى تفصل بيــن علـم الله ومعرفة المخلوق.. بين حكمة الله وحكمة الخلق، قد وضحـت فـى ذلـك اليوم المجيد وتأكدت على صورة تبهر الألباب.

وتبدأ مزايا "يوم الحديبية" .. بمجيئه فى أعقــاب غـزوة الخنـدق.. هذه الغزوة التى حشـدت قريش لـها كـل بأسـها، وخرجـت بتحريـض اليهود مصطحبة معـها حلفاءهـا، قـاصدة المدينـة لتغزوهـا دارا دارا، ولتجهز فى غير رحمة على المسلمين جميعا.

فى ذلك اليوم هدد المسلمون بخطر ماحق، ورأوا أنفسهم فجأة بين

جيش قريش وحلفائها يزحفون على مدينتهم الوادعة من الخارج، ويهود بنى قريظة يتهيأون لطعنهم من الداخل.

وليس ثمّة ما يعبّر عن المحنة التى وجد المسلمون أنفسهم بين أنيابها، مثل آيات القرآن الكريم التى وصفت وصورت ذلك الموقف المدمدم الرهيب:

".. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم
وإذ زاغت الأبصار. وبلغت القلوب الحناجر
وتظنون بالله الظنونا..
هنالك ابتُلى المؤمنون، وزُلزلوا زلزالاً شديداً "..!!!

ولكن، من ظلام المحنة، بزغ نور الظفر.. ومن حلكة اليأس أضاءت بشائر المستقبل.

فبينما الرسول والمسلمون يحفرون الخندق حول المدينة غَلُظت على بعض الأصحاب صخرة عاتية، فعلاها الرسول بمعوله وضربها ثلاث ضربات، ومع كل ضربة كانت الصخرة المتكسرة تبرق بوهج مجيد. كبّر الرسول حين أبصره، وحمد الله، إذ رأى خلال ذلك معظم الأرض الواسعة التى ستخفق فوقها غداً وبعد غد راية الإسلام والقرآن.

وأما قريش وحلفاؤها من بنى كنانة وتهامة وغطفان، فقد سخِر الله منهم وأنزل بهم خذلانًا ـ أى خذلان..!!

لقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا اليوم معجزة لدينه ولرسوله فلم ينشب قتال.. وصفّى القدر حسابه مع الغزاة البغاة بإحدى معجزاته الباهرات.

ففى بضع ليال متواليـة اشتد بردهـا حتـى الصقيـع، جـاءت ريـح عاصفة كريـح السموم اقتلعت خيامـهم، وأهلكـت دوابـهم، وشتتت جموعهم؛ "ووقف أبو سفيان" قائد قريش يقول لجيشه المبعثر:

[يا معشر قريش، إنكم والله مـا أصبحتـم بـدار مقام؛ لقـد هلـك الكراع - الخيل - والخُفّ - الإبل - وأخلفتنا بنو قريظة ولقينا من شـدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدِر.. ولا تقوم لنا نار. ولا يستمسك لنـا.. بناء.. فارتحلوا فإنى مرتحل].

وانسحب الجيش المترنح خزيان صاغرًا ذليلاً.

لم تشهد تلك الغزوة أى قتال.. ومن ثم كانت المعجزة، والمعجـزة وحدها، بطل النصر العظيم..

وإذا استثنينا الجهد الـذى بذلـه المسـلمون فـى حفـر الخنـدق، ومبارزتين قتل فى إحداهما مشـرك، وهـرب الثـانى.. ثـم تلـك الحيلـة البارعة الرائعة التى أفسد بها "نعيم بن مسعود" جو الثقة المتـآمرة بيـن قريش ويهود بنى قريظة.

إذا استثنينا هذه الأعمال الثلاثة، لا نجد بعد ذلـك جـهدًا بشـريًا لكسب حرب لم يصادف المسلمون مثلها ضـراوة وتـآمرًا ويأسًـا. إنمـا نجد "المعجزة" وحدها تؤكد للمسلمين أن النصر من عند الله.. وتؤكد لهم أن "محمدًا" حق.. وأن "الإسـلام" حـق.. وأن الله علـى مـا يشـاء قدير..!!

***

تقول: كانت أولى مزايا "يوم الحديبية" أنه يجىء فى أعقاب غـزوة الخندق هذه، بما سجلته من هزيمة ساخرة وقاهرة للمشركين. ومن نصـر

باهر ومعجز للمؤمنين.

كان الرسول قادرًا ساعتئذ أن يطارد الجيش الغازى ويجهز عليه. لكنه لم يفعل، لأن الحرب لم تكن وظيفته.. بل كانت ضرورته.. فإذا انصرف عنه عدّوه حمد الله وعاد إلى وظيفته الأساسية:

".. شاهدًا، ومبشرًا ونذيرًا

وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا"

أجل.. إنه لم يتمنَّ الحرب قط، ولم يسعَ إليها ولا رغب فيها. ولقد كان يعلم أصحابه فيقول:

"لا تتمنوا لقاء العدو

وسلوا الله العافية

وإذا لقيتموهم، فاصبروا

واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف".

إنه لا يريد الحرب، لأنه رسول لا مقاتل، ولكن إذا أراد الباطل أن يملى عليه غروره وبغيه، فجنته حينئذ تحت ظلال سيفه، يود أن يقتل فى سبيل الله، ثم يحيا ويقتل.. ثم يحيا ويقتل..!!

وهكذا عزفت نفسه عن مطاردة جيش كسير، كان قادرًا - لو تعقبّه - على إبادته أو إعطابه.

كذلك تسامت نفسه الطاهرة العالية عن زهو المنتصرين وصلف الظافرين، وتمنى أن تكون قريش قد حَذِقت الدرس وتطامنت أمام المعجزة، وقررت أن تُلقى سلاحها وتبرأ من جنون الحرب وعقدة التعاظم.

وأخذه الحنين الوارف إلى بيت الله الحرام بمكة، ورغب أن يبدأ

مسيرة مباركة إليه.. لكن شهر رمضان كان قد أهلَّ هلاله، فبقى الرسول بمدينته المنورة رمضان وشوّالاً، وفى شهر ذى القعدة من ذلك العام - السادس الهجرى - خرج ومعه قرابة ألف من أصحابه قاصدين المسجد الحرام، ليعتمروا ويزوروا.

خرجوا يرتدون ملابس الإحرام، ويسوقون الهَدْى أمامهم، آية أنهم لا يريدون صدامًا.

فلنقف الآن مبهورين أمام هذا المشهد الفَذّ.

رسول، لا تترك قريش فرصة لقتاله إلا تناولَتْها.. وقد سارت إليه منذ شهرين لا غير فى عشرة آلاف مقاتل من بنيها لتحصد المدينة حصدًا.. وهى وإن تك قد عادت خائبة، إلا أن جيشها وعتادها لا يزالان سليمين، ثم إن الخيبة التى نزلت بها تزيد حقدها ضرامًا.

مع هذا كله، يذهب الرسول إليها طائعًا مختارًا فى ألف فقط أو أقل من الألف، مغمدين سلاحهم، متجرّدين من قوتهم.

إنها الثقة المطلقة بالله.. ثقة رسول صادق يعلم أن الله اصطفاه لرسالته.

وإنه الولاء الوثيق للسلام يحمل صاحبه دائمًا على إحسان الظن بالخصم، وتمنى الهدى له.

***

خرج الرسول وأصحابه، تسبقهم أشواقهم إلى البلد الذى شهد مراتع صباهم وشبابهم، وإلى البيت الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمنًا.. حتى إذا بلغوا (عسفان) على مرحلتين من مكة، لقيهم من أنبأهم أن قريشًا قد علمت بهذه المسيرة، وأنها خرجت على بكرة أبيها،

وأخذت مواقعها على مشارف مكة لتصد الرسول والمسلمين بقوة السلاح عن دخولها .

وكان جواب الرسول على هذه المفاجأة القاسية:

"يا ويح قريش..

لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا .. وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين.. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.

"فما تظن قريش..؟؟

"والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.."

وعدل عن الطريق المفضية إلى حشود قريش تفاديًا لأى صدام.

عدل عنها رغم استوائها إلى طريق آخر وعر، يضر الأجساد ويدمى الأقدام.. وتابع الرسول سيره حتى بلغت مسيرته وأصحابه مهبط الحديبية على مقربة من مكة.. ونزل المسلمون ونصبوا خيامهم، ووقف الرسول موليًا وجهه صوب مكة، وعيناه ترسلان نظراتها الحانية إلى مشارفها الآسرة، وراح يقول:

"لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألوننى
فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها"!!

إن رحمته لتجاوز الحدود المألوفة لرحمة البشر.. إنها لتمتد وتنبسط حتى تنال شانئيه وأعداءه.. إنهم بدل أن يكونوا موضع نقمته، أصبحوا موضع رثائه وشفقته.. إنه يرجو لهم التعقل والأناة ليذَروه وشأنه، يبلغ كلمة الله ويهدى إلى الخير عباده.. بل حتى فى حالة

الحرب إذا أصروا عليها، شفق عليهم أن يحـاربوا وهـم يـترنحون مـن إعياء الخيبة التى أدركتهم يوم الخندق، فيتمنى لهم أن يقاتلوا ـ حين يقاتلون ـ وبهم وَفْرَة، كما رأينا فى كلماته السالفات..

أى إنسان كامل كان أبا القاسم ﷺ..؟؟!!

***

وجاءه وفد من خُزاعة تحت إمرة "بُديل بـن ورقـاء" وسـألوه عليـه السلام: ما الذى جاء بـه..؟ فأنبـأه أنـه جـاء لـيزور البيـت ويـؤدى لـه مناسك التكريم وشعائر التعظيم، وأنه لم يأت لحرب أبداً.

وعاد الوفد إلى قريش يلومهم على احتشادهم المسلح أمام جماعة جاءوا لبيت الله ـ لكن القرشـيين ركبـوا رءوسـهم ورفضـوا أن يدخـل المسلمون ورسولهم مكة بحال.

وأرسلوا مبعوثًا لهم يطلب من الرسول أن يرجع بأصحابه.. وقال له الرسول ما قاله من قبل لبديل بن ورقاء.

وأرسلت قريش مبعوثًا ثانيًا، لم يكد يرى الهدىَ يسيل فـى جنبـات الوادى مزدانًا بقلائده، حتى أدرك أن الرسول وصحبـه لـم يـأتوا لغـير عبادة، ونُسك، فاستحيا أن يذهب ببلاغ قريش إلى رسـول الله واختصـر الطريق وعاد ليقول لقريش:

"أيُصدُ عن بيت الله من جاء معظمًا له..؟

"والذى نفسى بيده، لَتُخَلُّنَ بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد".

ولم تُطامِنْ قريش من غرورها، فبعثت مبعوثها الثالث.. جاء ليقـول للرسول عليه الصلاة والسلام.

[.. إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وتعاهدوا ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً].

وطال حديثه إلى الرسول، وكاد المغيرة بن شعبة صاحب رسول الله يبتر يده بسيفه حين تناول لحية الرسول وهو يحادثه لولا بسمة انفرجت عنها شفتا النبى وتهلل بها ثغره، وإشارة من يمينه المباركة للمغيرة كى يكفُ غضبه ويسكت..!!

وعاد "عروة بن مسعود" مبعوث قريش هذا ، إلى قومه مأخوذًا مبهورًا .

عاد يقول لهم:

"يا معشر قريش.. إنى قد جئت كسرى فى ملكه..

وقيصر فى ملكه.. والنجاشى فى ملكه.

وإنى والله ما رأيت ملكًا له من المنزلة فى قومه مثل ما لمحمد فى أصحابه.

"ولقد رأيت فى أصحابه قومًا لا يُسْلمونه لشىء أبدًا

"فَروْا رأيكم"

ودارت الأرض بقريش..

وبينما شيوخها يفكرون، قدم عليهم مبعوث للرسول لم يكادوا يبصرونه حتى فجروا غيظهم الأحمق، فعقروا البعير الذى كان يركبه، وهَموا به ليقتلوه لولا أن منعتهم الأحابيش وتركوه يرجع سالمًا إلى رسول الله.

ولم يجزع النبى ولم ييأس، فدعا "عثمان بن عفان" وأمره أن يذهب إلى قريش ليبلغ أشرافها ورجالها أنه لم يأت لحرب.. إنما جاء

معتمراً وزائراً لبيت الله الحرام.

أى بَشر، مهما تكن حبال صبره طويلة، لا يغضب لنفسه أمام كل هذا العنت والتجبر..؟؟

ولكن رسول الله يخرج عن كل نفسه إلى طاعة ربه ورضوانه. وهو لا يبخل عن الصفح الجميل ونشدان السلام، حتى حين يساء فهم موقفه النبيل.

وذهب "عثمان" وبلّغ رسالة الرسول، ورفضت قريش كل دعوة للتعقل.. وأذنت لعثمان أن يزور البيت الحرام ويطوف به إذا شاء.. لكنه رفض، وقال كلماته العظيمة:

"ما كنت لأفعل، حتى يطوف به أولاً رسول الله"!!

واستبقته قريش عندها، وطارت إلى المسلمين شائعة قوية تعلن مقتل "عثمان" بأيدى قريش.

***

شائعة..؟

ومقتل عثمان..؟

وهل هذا مقام، وهل هذه مناسبة يترك الله فيهما رسوله ليكون نَهب شائعة من الشائعات.؟

وإذا لم يسعف الوحى رسول الله باليقين فى مناسبة محفوفة بالخطر كهذه المناسبة، فمتى يكون الإسعاف..؟!

شبهة قد ترد على خاطر القارئ المتعجل، لكن مع قليل من الأناة ندرك أن الوحى لم يحرم الرسول فى هذا الموقف من بركة اليقين..

صحيح أن الوحى لم يأته فى نفس اللحظة، ليقول له: إن عثمان لم

يقتل، ولا يزال حيًا معافى.. ذلك لأنه كان قبلاً قد بشّر الرسول بعاقبة الموقف كله، وأعطاه فى رؤيا صادقة صورة الموقف كله: دخول المسجد الحرام آمنين، والرجوع إلى المدينة سالمين..

ورُسُل الله الأعْلَون، لا يعاملهم الوحى ولا يعلمهم بطريقة التَّهْجيَة، بل هو يَدعهم يواجهون عظائم الأحداث والأمور بكدح البشر ومُعاناة الرواد، وحسبهم ذلك اليقين الأكبر الذى منحهم الوحى إياه حين أعلن إليهم اصطفاء الله إياهم، ووعده بنصر الرسالات التى ملأ بها قلوبهم وتوّج بها كواهلهم.

وهكذا لم يكن الرسول بحاجة ماسة إلى ما يزيده فى موقف الحديبية يقينا بأن الله منجز وعده، وحافظه وصحبه فى هذه المسيرة التى بشر بها.. فهناك اليقين العام الذى يعمل الرسول فى دائرته.

لقد رأى رؤيا صادقة - ورؤيا الأنبياء حق - أنه وأصحابه سيأتون مكة ويزورون المسجد الحرام دون أن يعكر مسيرتهم حادثة على مستوى قتل صحابى من كبار أصحابه كعثمان بن عفان رضى الله عنه.

فهو لهذا يشعر رغم قوة الشائعة بطمأنينة نفس.. وإذا كان القدر قد ترك فى هذا الموقف قدرا من الشك والفراغ المجهول بشأن هذه الشائعة، فذلك طبيعى حتى يأخذ الجهد البشرى حظه من حرية الحركة وصنع الأحداث.. فبمثل هذا تبلغ القدوة بالمرسلين مداها وتعطى ثمارها فى دنيا الناس.. وهكذا رأينا الرسول عليه السلام يواجه الموقف بعقلية القائد وطمأنينة الرسول.

فهو أمام شائعة العدوان على حياة مبعوثه يرى أن قريشا قد أعطته الحق المحتوم فى مناجزتها، فينادى أصحابه إلى بيعة خلدها القرآن

باسم "بيعة الرضوان".

وهو أمام طمأنينيه بصدق ما رأى وما وُعد، يحسّ كأن الشائعة غير صحيحة، ومن ثم نراه عليه السلام بعد أن بـايع أصحابـه وبـايعوه علـى مناجزة قريش، يضع إحدى يديه على الأخرى قائلاً:

"وهذه بيعة عثمان"..

أى أنه تلقى البيعة من نفسه لنفسه نيابة عن صاحبه عثمان.

وتفسير ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان ينظر إلى عثمان.. بوصفه "غائبًا" لا ميتًا ولا مفقودًا.. ولهذا أثبت له بيعة الأحياء.

إن يوم الحديبية حين نطالع فى التاريخ أنباءه، كان مدرسة رائعة لدروس روائع..

- إن تأهيل المسلمين لحمل أمانة الإسلام بكل ما يفرضه ويتطلبه من ثقة مطلقة بحكمة الله، وتسليم مطلق لأمره، قد تم فى ذلك اليوم على خير نسق..

- وإن وضوح حقيقة الإسلام، كدين يهدى ولا يكره.. وسيلته الحجة، لا السيف.. والإقناع لا القهر، قد تجلى فى ذلك اليوم كنور الصباح..

- وإن أعظم عملية صهر واختبار للقوة النفسية التى يشكلها إيمان المسلمين، قد تمت فى ذلك اليوم، طاردة عن تلك القوة كلّ شوائب التردد والضعف، صاعدة بها إلى أعلى درجات التمكن والوثوق.

***

ولقد كان اليوم من أولى ساعاته مفعمًا بالأحداث التى شاءها

القدر الحكيم لينضج عليها روعة الإيمان الذى يملأ قلوب هذه الثُّلة المباركة من أصحاب الرسول ﷺ.

لكن هذه الأحداث بلغت قمة التمركز والجيشان حين أرسلت قريش مبعوثها الأخير "سهيل بن عمرو" لعقد صلح مع رسول الله يكون أساسه العدول نهائيًا عن دخول مكة هذه المرة حتى لا يتحدث العرب أن الرسول ﷺ والمسلمين قد دخلوها عليهم عنوة.

وعلى الرغم من أن "سهيلاً" كان مفاوضًا بارعًا، إلا أن النجاح الذى أحرزه لم يرجع قط إلى براعته.. إنما يرجع أولاً وأخيراً إلى رغبة الرسول ﷺ فى حقن الدماء، ومنح قريش كل فرصة تمكنها من التغلب على غرورها وحمقها وضلالها، وإقناعها بكل سبيل، أن الإسلام دين محبة وسلام.. وبِر ومَرْحمة.

***

جلس سهيل أمام الرسول ومن حوله أصحابه يتدارسون شروط الصلح المأمول.

وكلما دار الحديث حول شرط من تلك الشروط، غَلت صدور الصحابة كالقدور.. فقد كان الأمر كله يبدو لصالح قريش دون المسلمين.

ثم جاء دور تسجيل المعاهدة فى صحيفة.. ولْنُصغ الآن لما يقوله الذين شهدوا الواقعة:

"..ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب

فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم

"فقال ـ سهيل ـ لا أعرف هذا.. ولكن اكتب

بسمك اللهم..

"فقال الرسول لعلي: اكتب: باسمك اللهم..

"ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه (محمد) رسول الله، سـهيل بـن عمرو.

"فقال سهيل: لو أعلـم أنـك رسـول الله مـا قـاتلتك، ولكـن اكتـب اسمك واسم أبيك..

"فقال الرسول لعليّ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بـن بـن الله، سهيل بن عمرو.. اصطلحا على وضع الحرب عـن النـاس عشر سنين، يأمَنُ فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ـ على أنه من أتى محمداً مـن قريش بغير إذن وليه رده عليهم.. ومن جاء قريشـًا ممـن مـع محمـد لـم يردوه عليه.. وإن بيننا عَيبة مكفوفة ـ أى شر مكفـوف ـ وإنـه لا إسـلال ولا إغلال ـ لا سرقة ولا خيانـة ـ وإنـه مـن أحـب أن يدخـل فـى عـهد محمد دخل فيه.. ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه.

"وأنك ترجع عنا عامَك هذا فلا تدخل علينا مكـة، وأنـه إذا كـان عام قابل، خرجنا عنك فتدخلها بأصحـابك تقيمـون بـها ثلاثـًا، معكـم سلاح الراكب، السيوف فى القُرُب، لا تدخلها بغيرها"..

***

ما نحسب الرسول عليه السلام واجه موقفـًا متأزمًـا ومثيراً كـهذا الموقف.. وما نحسب المسلمين واجهوا ـ حتى أيام محنتهم وتعذيبـهم بمكة ـ موقفًا هزُهم هزاً عنيفًا كهذا الموقف فى ذلك اليوم.

لقد انتصروا على المشركين فى كل حرب خاضوها معهم من قبل.. ولقد عجزت قريش عجزاً مطلقًا عن أن تدخل عليهم مدينتهم أو تحتـل

شبرًا واحدًا منها، وها هى ذى لا تزال تجتر مرارة الخيبة التى حاقت بها فى غزوة الخندق.. ألم يكن جديرًا بهذا كله أن يجعل كفة المسلمين هى الراجحة فى صلح كهذا..؟؟ فما بال الأمر يجرى على النقيض..؟

تلك حكمة الله، يا أصحاب الرسول..

وتلك عظمة هذا اليوم الباهر والجليل..

***

لقد رفض مبعوث قريش أن يبدأ عهد الصلح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" لأن كلمتى "الرحمن الرحيم" كانتا تمثلان الوصف الجديد الذى يعرف المسلمون به الله رب العالمين.. ثم رفض أن يُكتب: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" وطالب بأن يُحذف عن الرسول وصف الرسالة.. وفى كلا الأمرين استجاب الرسول من فوره.

ثم فرضت معاهدة الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك دون أن يدخلوا مكة ويزوروا المسجد الحرام.

ثم حددت مدة إقامتهم حين يعودون فى العام القادم بثلاثة أيام، لا يبقون بعدها ساعة من نهار..

ثم فرضت على المسلمين أن يردوا إلى مكة كل من غادرها إلى المدينة ليعتنق الإسلام من غير إذن وليّه.

كل هذا قبله الرسول وأمضاه.. أما المسلمون فقد كاد صوابهم يطير. واستجاش الموقف كل ما فى صدورهم من عزّة وكل ما فى عروقهم من دم، ووقعوا فى حيرة مرهقة من كبت مشاعرهم احترامًا لقرار الرسول، وترك هذه المشاعر تتفجر وتمور نقمة على قريش وغرورها..!!

وتلاقت نظراتهم حيرى متسائلة.. ولم يستطع "عمر بن الخطاب" أن يصمت، فساءل الرسول:

"ألسْت رسول الله حقًا..؟

قال الرسول: "بلى..

قال عمر : "أولسنا بالمسلمين..؟

قال الرسول: "بلى..

قال عمر : "أوَلَيْسوا بالمشركين..؟

قال الرسول: "بلى..

قال عمر : "فلم نُعطى الدَّنيّة فى ديننا؟

قال الرسول: "أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره؛ ولن يضيعنى".

لقد سمع المسلمون هذا الحوار.. وعلموا أن الرسول وإن يكُ قد وعدهم بدخول مكة وزيارة البيت الحرام، فإنه لم يقل لهم: هذا العام

ولكن رغم ذلك كله كان الموقف صعبًا وثقيلاً على قوم أعزة زادهم الإسلام عزة وصلابة.

ولقد زاد الموقف توترًا وصعوبة حين أقبل على الرسول شاب يعدو.. وألقى نفسه بين يديه هاتفًا بكلمة الإسلام ...!!

كان الرسول قد فرغ لتوِّه من توقيع معاهدة الصلح.. وكان الشاب "أبو جندل" ابن سهيل بن عمرو الذى فاوض الرسول وأمضى المعاهدة نيابة عن قريش..

أخذ أبوه بتلابيبه، وراح يضرب وجهه فى وحشية بالغة.. ولما رأى حنان الرسول يأتلق فى عينيه صاح قائلاً:

[يا محمد.. لقد لَجّت القضية، وتم العهد بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا].

وقال الرسول، والأسى يملأ نفسه: ـ صدقت..

لقد صار واجبًا على المسلمين بحكم المعاهدة التى تم إبرامها من لحظة أن يردوا (أبا جندل) إلى قريش..

وهكذا قاده أبوه أمامه ليرده إلى قريش التى كانت قد شوّهت جسده بتعذيبها إياه من أجل اعتناق الإسلام..

قاده أمامه، يدفعه ويضربه بينما راح (أبو جندل) يتلفت صوب المسلمين وينادى:

" يا معشر المسلمين

"أتتركونى أرد إلى المشركين، يعذبوننى ويفتنوننى فى دينى.؟

وقال له الرسول عليه السلام:

"يا أبا جندل!

"اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا"!!

بينما شد هذا المشهد زناد التوتر النفسى إلى أقصاه فى نفوس المسلمين؛ صار الموت أهون عليهم وأحب إليهم من أن يتخلوا هكذا عن نصرة أخ لهم تطحنه ـ وهم يبصرون ـ أنياب الشرك والطغيان.

لكن الله بالغ أمره..

ولقد أراد فى هذا اليوم المشهود أن يظهر للمسلمين يومئذ وللمسلمين القادمين إلى يوم القيامة، قبسًا من حكمته وتدبيره ليعرفوا بعد، كيف يؤمنون به، ويُفوّضون إليه، ويعتمدون عليه..

أراد ـ سبحانه ـ أن ينفى عـن إيمـان المؤمنيـن كـل بقايـا الـتردد والتساؤل..

وأراد ـ سبحانه ـ أن يُعلّم أولئك الذين امتشقوا سيوفهم دفاعًا عن الإسلام، أنه مهما يكن نبل المقصد الذى أشرعت من أجلـه السـيوف، فإن الإسلام دين سلام.. وأنـه يجـد فرصتـه المواتيـة خـلال الموادعـة والمصالحة والسلام.. وهكذا، لن يمر عامان مـن يـوم الحديبيـة هـذا حتى يدخل المسلمون مكة فـة عشـرة آلاف يتقدمـهم رسـولهم الأميـن الكريم، وحتى تدخل مكة كلها فى دين الله، ملقيـة إلـى الأبـد حقدهـا على الإسلام وعلى المسلمين.!!

***

لقد بدا واضحًا جليًا أن كل أحداث ذلك اليوم كـانت مـن تدبير القدر الحكيم.

بدا ذلك، حينما كان الرسول والمسلمون فى طريـق عودتـهم إلـى المدينة فإذا الوحى يتنزل علـى الرسـول بسـورة "الفتـح" مفسـرًا تلـك الأحداث، ومعلنًا قبسًا من حكمة الله فيها.

لقد أعلن الوحى أن صلح الحديبية رغم ما وجـده المسـلمون فيـه من عنت، إنما هو بوابتـهم العريضـة المفتوحـة علـى مسـتقبل يتـلألأ بالنصر وبالمغانم.

﴿إنَّا فتحنا لك فتحًا مبينًا ؛ ليغفر لك الله مـا تقـدَّم مـن ذنبـك ومـا تأخر، ويتم نعمته عليك، ويهديك صرطًا مسـتقيمًا، وينصـرك الله نصـرًا عزيزًا﴾..!

وأعلن الوحى أن ذلك اليـوم الحـرور، كـان صَـهرًا رائعًـا للقـوى

النفسية لدى المؤمنين، وأنهم بهذا الصهر قد اكتسبوا سكينة المؤمنين.

﴿هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم﴾ .

كما أكد أن هذه السكينة التى نالوها، والتى استقر إيمانهم بها عند أعلى مستويات اليقين هى النصر الحقيقى.. هى أغلى وأثمن من كل نصر عسكرى أو سياسى كانوا يطمحون إليه.

فقال تعالى:

﴿وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا﴾.

وخلَّد الوحى ذكرى بيعة الرضوان، واعتبرها مَعْلمًا من معالم المسيرة الإسلامية الكبرى.

﴿إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله

يد الله فوق أيديهم ﴾..

﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم؛ فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴾.

وكشف الوحى عن طرف من حكمة الله فى هذا الصلح وما واكبه من أحداث، معلنًا أن هذا الذى ظنه المسلمون إخفاقًا ، ليس سوى إدلاف إلى مغانم كثيرة وإظهار لبركة الإسلام الذى سينتشر تلقائيًا ومن غير قتال انتشار الضوء والرياح.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجّل لكم هذه وكف أيدى

الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين، ويهديكم صراطًا مستقيمًا ﴾.

ثم أكد الوحى صدق الرؤيا التى رآها الرسول، والتى بتأثيرها خرج وأصحابه قاصدين مكة والمسجد الحرام.

وأكد الوحى صدقها وإنجاز وعدها فى يوم قريب.

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق.

لتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله

آمنين مُحلِّقين رءوسكُم ومُقصّرين، لا تخافون

فَعلِم ما لم تعلموا ؛ فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا ﴾.

***

ينقل ابن هشام عن الإمام الزهرى قوله عن صلح الحديبية:

[ما فُتح فى الإسلام فتح قبله، كان أعظم منه، فحين كانت الهدنة ووُضعت الحرب، لم يكن أحد يسمع بالإسلام إلا دخل فيه، حتى لقد كان عدد الذين أسلموا فى سنتين اثنتين مثل أو أكثر من عدد جميع الذين أسلموا منذ ظهر الإسلام].

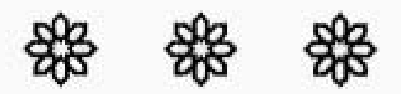
أجَل.. لقد علم الله ما لم يعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا ..

لقد كان يوم الحديبية هذا ، فى أواخر العام السادس للهجرة.. وفى أواخر العام الثامن للهجرة، أى بعد عامين اثنين كان عشرة آلاف مسلم يأخذون طريقهم الظافر إلى مكة تحت إمرة رسول الله ﷺ..

وكان القدر العظيم قد أعد المشهد إعدادا مثيرًا ، فجعل على ميمنة جيش الإسلام الزاحف (خالد بن الوليد) الذى كان قد شَدَّ رحاله إلى المدينة بعد صلح الحديبية، وقبيل فتح مكة حيث آمن

وأسلم وأخذ مكانه بين جنود الله والإسلام.

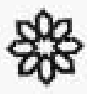
هكذا كان يوم الحديبية، بما انطوى عليه من حكم بالغة ومقادير تناهت فى الجلال والإعجاز..!!

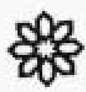


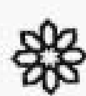
(٧)

يوم الفتـــــح

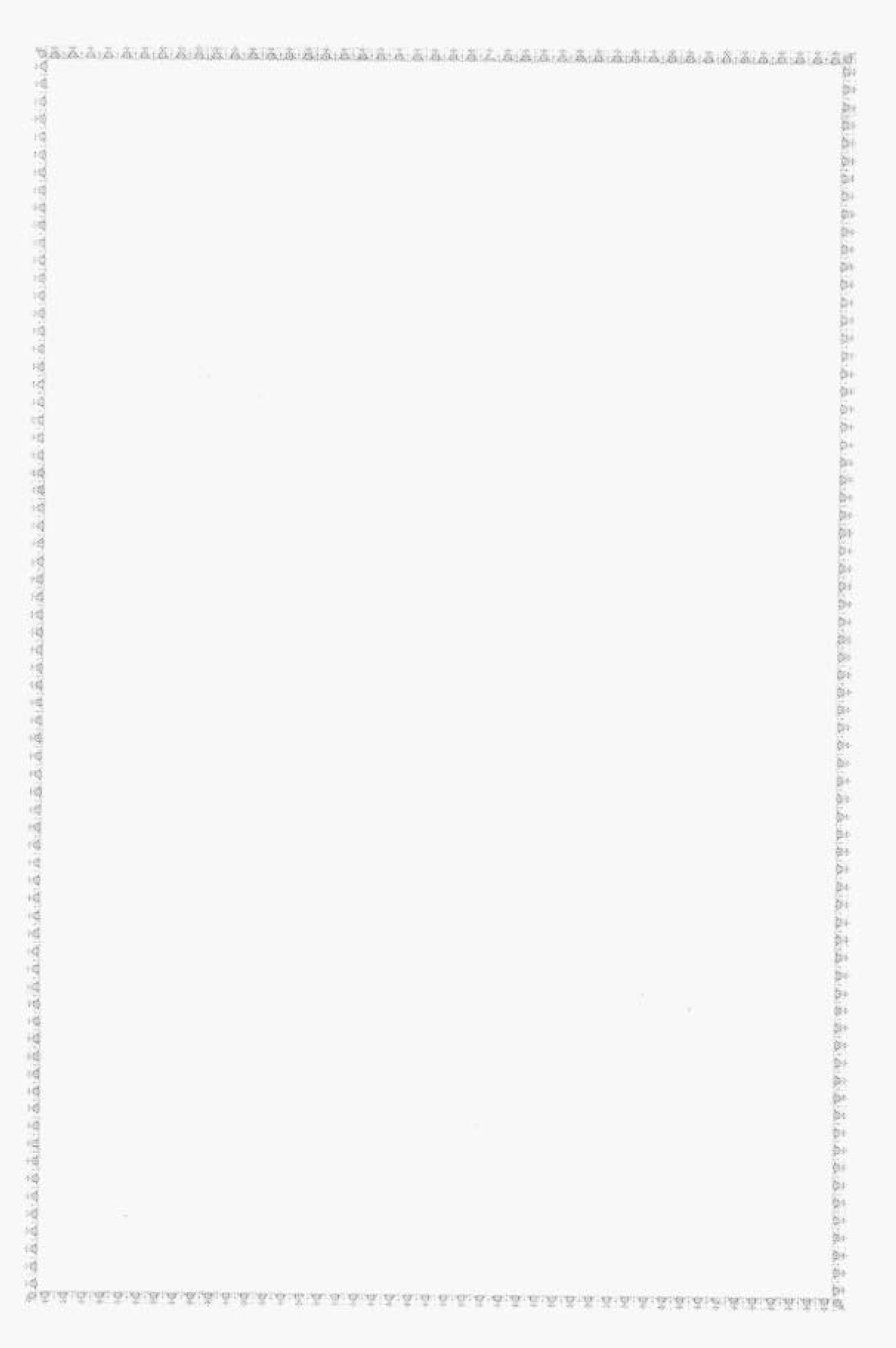
﴿ جاءَ الحَق ، وزَهَقَ البَاطِل ﴾











عرفنا أنه كان بين بنود صلح الحديبيــة، أن مـن أراد الدخـول فـى عهد الرسول دخل فيه، ومن أراد الدخول فى عهد قريش دخل فيه.

ومعنى الدخول فى العهد أن يكون الداخل حليفا للطـرف الآخـر ينصره ويستنصره..

ويوم تم توقيع المعاهدة دخلت قبيلـة "بنـى بكـر" فـى عقـد قريـش فصاروا حلفاءها.. ودخلت قبيلة "خزاعـة" فـى عقـد الرسـول فصـاروا حلفاءه.

وبعد توقيع المعاهدة، ورجوع الرســول إلـى المدينـة تفـرغ عليـه السلام لتوسيع مجال الدعوة إلى الله، فأرسل رسـله إلـى أقطـار الأرض حاملين كتبه إلــى رؤسـاء الـدول وأباطرتـها وملوكـها يدعوهـم إلـى الإيمان بالله الواحد الأحد.

فإلى ملك الفرس.. وإلى قيصر الروم.. وإلى نجاشى الحبشة.. وإلى المقوقس فى مصر.. وإلى أقيال العرب فى أنحاء الجزيرة العربية.. إلـى هذه الدنيا الواسعة العريضـة، انطلـق رسـله المبـاركون حـاملين دعـوة الحق الخير والهدى والنور.

ولقد حافظ الرسول على عهد الحديبية محافظة وثقــى، فلـم يخـل

بحرف منها، وحاشاه أن يُخلَّ بعهد أو التزام.

لكن قريشًا وقد أفزعها ما أفاءه السّلام على الإسلام من فرص ثمينة مكّنته من الذيوع السريع وامتداد نفوذه الروحى بغير سلاح وبغير عناء.

قريش وقد أفزعها ذلك، راحت تتلمس للغدر بعهدها المكتوب فرصة.

وحدث أن أغار حلفاؤها "بنو بكر" على "خزاعة" حلفاء رسول الله والمسلمين.. والتجأت "خزاعة" إلى البيت الحرام بمكة عائذة بحرمته وبقداسته من بنى بكر.. ولكن بنى بكر أهدروا حتى حرمة الحرم وهاجموا خزاعة فى داخله وقتلوهم فى مجزرة بشعة رهيبة.. وكانت قريش عونًا لها على جريمتها.

وبين مَن نجوا من القتل، كان "عمرو بن سالم الخُزاعى" الذى أغذّ السير إلى مدينة الرسول، وسارع إلى المسجد حيث كان عليه السلام جالسًا مع بعض أصحابه، فألقى السلام وصافح ثم راح يروى مأساة قبيلته خزاعة فى قصيدة مُثيرة:

يا رَبِّ إنى ناشدٌ محمدًا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا

فانصر هداك الله نصرًا أعْتَد وادْعُ عباد الله يأتوا مددا

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا وقتلونا رُكَّعًا وسجَّدا

وجاء على أثر "عمرو بن سالم" وفد من خزاعة، شرح للرسول عليه الصلاة والسلام تفاصيل المأساة الغادرة ودور قريش فيها.

وكان حقًا للرسول، وحقًا عليه أن ينصـر حلفـاءه الذيـن تعرضـوا لهجوم وحشى وغادر.

هنالك أرسل إلى قريش يخيرها بين دفع دِيَة القتلى مــن خُزاعـة أو التخلى عن بنى بكر وإلغاء حلفها معهم.. أو اعتبار معـاهدة الحديبيـة مُلْغاة.. ورحَّبت قريش بالخيار الثالث واختارت إلغاء المعاهدة.

وكان معنى اختيارها هذا واضحًا جَليًا، فهى رغم وجود المعـاهدة ناصرت حلفاءها ضد حلفاء الرسول، ثم رفضت عَرْض الرسول بتســوية عادلة تُدفع فيها دية القتلى.. والآن وقد آثرت إلغـاء المعـاهدة كلـها، فهى إذن تُمهد لاستئناف عدوانها على الإسلام وعلى المسلمين.

وقرر الرسول فتح مكَّة..

***

وهنا، فى يوم الفتح نلتقى بواحد من الأيـام العظيمـة لرسـول الله.. يوم تألَّقت فيه شمائل "ابن عبد الله" وشخصيته الفريدة.

• إن مزية يوم الفتح تتمثل فى أنه قــدّم لأخلاقيـات النصـر أرفـع نموذج عرفه تاريخ البشرية، مذ كانت حتى يومنا هذا.

• كما تتمثل فى إعلانــه الأكيـد بأنـه مـهما تكـن شـرور الدنيـا وظلامها وطغيانها وزيفُها فإن الغلبة أخيرًا للحقيقة والصدق.

فلقد افْتاتت قريش بتعذيب المسلمين حتى بَشِمَتْ، وكانت بكثرتها وبحلفائها وبسيادتها وبصلابة التقاليد التـى تحيـا بـها وتـذود عنـها.. كانت بهذا كله تبدو: وكأنها قادرة تمامًــا علــى إبـادة الديـن الجديـد الناشئ، حتى جاء يوم الفتح ليقلب ميزان حسابها.

ويقدم غرورها وصلفها وبطشها وآلهتها طُعمة ليوم الحساب..!!

ولكن يوم الحساب هذا، يُحوله الرسول ـ صلى الله على الرسول ـ إلى آية كبرى فى أخلاقيات النصر.. آية كبرى فى السُّمُوّ والتسامح والرحمة والحنان على الإنسان وعلى الحياة.

ها هو ذا يدخل عليه فى خيمته الرجل الذى قاد كل حروب قريش ضد الإسلام.. يدخل عليه وهو يرتجف إذ يرى سيف (عمر بن الخطاب) يتلمظ به يريد أن يخطف رأسه.

أجل.. ها هو ذا أبو سفيان تُصْمى سَمْعَه وتَفدح عينه هُتافات النصر ورايات الإسلام.. وهو وحيد أعزل، لم يعد معه ولم يعد له ذلك الجيش العرمرم الذى طالما حارب به الإسلام ورسوله.

ها هو ذا، ولا مطمح له أكثر من أن يحقن الرسول دمه ويحفظ له حياته.. فإذا رسول الله تتجلى إنسانياته وتتألق فى إجراء ما نعرف له من نظير..

لقد عزّ عليه ما بدا فيه أبو سفيان من مَذلَّة وهوان.. هذا الذى كان من ساعاتٍ زعيم قريش كلها.. هذا الذى تحدَّر من أصلاب شيوخ قريش وأمجادها.

لقد كان رديئًا ومقيتًا حين كان معه شرّه وإثمه وبأسه يُحادُّ بها الله ورسوله.. أما الآن وقد أكرهته مشاهد النصر العظيم على أن يخلع عنه شرّه وإثمه وبأسه فلماذا لا يكون له فى هذا اليوم من رحمة الله وبرّه وسموه حظًا جزيلاً من التكريم..؟؟

لقد أمر الرسول بعض أصحابه أن ينادى:

"من دخل المسجد الحرام فهو آمن"

"ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن"

"ومن دخل داره فهو آمن"

انظروا .. المسجد الحرام، ودار أبى سفيان.. أى تكريم هذا الذى ما كان ليطوف بخاطر قائد قريش ولا فى الأحلام..؟!

لقد كان حسبه لفتة تسامح.. كان سيعتبر نفسه أربح الفائزين لو سمع من الرسول عليه السلام مجرد كلمة عفو وصفح.. فإذا به يرفع له علم، حين يعلن منادى الرسول أن دار أبى سفيان هى اليوم أمن وملاذ.. وهى اليوم موضع حرمة ورعاية وتكريم.

يا لسمو نفسك ويا لجلال شمائلك، يا رسول الله.

إن هذه الدار، هى دار الرجل الذى دوخ المسلمين عبر عشرين عاما.

وفى هذه الدار تقبع (هند) زوجة أبى سفيان التى مزقت يوم أحد بطن عمك "حمزة" ومضغت فى ضراوة كبده.. واتخذت من أمعائه قلائد..

أين فى تاريخ البشر ـ جميع البشر ـ تسامح كهذا.. سمو كهذا.. جلال كهذا..؟؟

صدق ربنا الأعلى:

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

***

ونواصل متابعة السمو الباهر فى يوم الفتح العظيم.

لقد كان (سعد بن عبادة الأنصارى) أحد قادة الجيش المسلم فى ذلك اليوم، وكان عليه أن يدخل مكة على رأس فيلقه من ناحية المعلاة عند جبل كداء، مهيئا الطريق لدخول رسول الله..

وتذكر سعد بن عبادة فى تلك اللحظات ما أصابه من أذى قريش فى بيعة العقبة، حين نمى خبرها ـ يومئذ ـ إلى الزعماء القرشيين فخرجوا يطاردون الأنصار الذين بايعوا الرسول، فلم يدركوا منهم سوى اثنين، هرب أحدهما ونجا.. وأمسكوا بالثانى وقادوه إلى مكة ليسوموه من تعذيبهم ـ وكان هو ـ سعد بن عبادة.

لقد أنزلوا به يومئذ الضر، وأطلقوا سراحه بعد حين، لما علموا أنه واحد من زعماء المدينة، طريق تجارتهم إلى الشام.

تذكر (سعد) ذلك الماضى الأسيف، وأخذه زهو النصر الذى منحه الله عباده المؤمنين فى هذا اليوم المجيد، فصاح وهو يقترب من أبواب مكة:

[اليوم يوم الملحمة.. اليوم تستباح الحرمة]

ونقلت كلماته إلى الرسول، فأغضبته، وأمر (على بن أبى طالب) أن يدرك سعد بن عبادة ويتأمر على فيلقه، ويأخذ منه الراية ويدخل بها مكة..!!!

إنه لا يسمح لأحد أصحابه وقادة جيشه بلحظة واحدة من الزهو فى يوم نصر عظيم كهذا..

ذلك لأنه ليس غازيا ولا فاتحا، فتحركه مشاعر الغزاة والفاتحين.

بل هو رسول وهاد..

وفى ضجة النصر وهيلمان الفتح لا يكون للزهو مكان فى أفئدة المرسلين ولا فى أفئدة المؤمنين.. إنما هى الجباه تنحنى شكرا لله وإخباتا حتى تكاد تلامس التراب..!!!

***

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تكتم نبأ خروجه إلى مكة ودعا ربه قائلا:

"اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش؛

حتى نبغتها فى بلادها..."

وكان حرصه على نجاح المفاجأة مظهرا لرحمته الوارفة.. فهو يعلم أنه إذا استيقظت قريش على أخبار الفتح قبل إنجازه، فسوف تستعد للحرب وتتهيأ. وعندئذ يكون الصدام المسلح، ويكون القتال والقتل والضحايا ـ الأمر الذى لا يريده الرسول ولا يتمناه.

ولقد كتب الله للخطة توفيقا ونجاحا باهرين، وفوجئت مكة بعشرة آلاف مسلم يحملون سيوفهم وأعلامهم، فلم تحر جوابا، ولا درت صوابا.

وكان الرسول عليه السلام قد أمر الجيش وقواده ألا يريقوا دما قط، وأن يدخلوا البلد الحرام حاملين إليه الأمن والسلام والعافية..

لقد نفذ المسلمون أمر الرسول بحزم شديد، ولم يقع سوى حادث أو حادثين، ذهب فيهما خمسة قتلى من قريش، وشهيدان من المسلمين.

وفى وهج هذا الانتصار الساحق المبين، تطل علينا المعجزة بضياء جديد يبهر الألباب.. فهذا هو الرسول المنتصر تواتيه الفرصة لكى يفرض دينه وتعاليمه، فإذا هو لا يصنع ذلك أبدا.. إنه كان معنيا بأمر واحد، هو إزاحة مظاهر الوثنية والشرك ونسف ما وراء هذه المظاهر من باطل وضلال.. من أجل هذا لم يكد يطمئن بمكة، ويطمئن على أهلها وعلى استقرار الهدوء والأمن فيها حتى قصد البيت الحرام فطاف به سبعا.. ثم دخل المسجد فرأى الأصنام تملأ جنباته وأبهاءه..

تماثيل من رصاص وخشب، طالما هانت أمامها كرامة الإنسان وأهدرت لها حرمة العقل والضمير، فراح - عليه السلام - يحطمها ويقذف بها أرضا وهو يردد الآية الكريمة:

﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾

﴿إن الباطل كان زهوقا﴾

وعلى جدران البيت الحرام أبصر صورا كثيرة، صوروا بها ملائكة الله، تتوسطها صورة كبيرة لأبى الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، صوروه فيها وهو يستقسم بالأزلام، فآلمه المشهد وقال:

"ما شأن إبراهيم بالأزلام"..؟

ثم تلا الآية الكريمة:

﴿ما كان إبراهيم يهوديا، ولا نصرانيا

ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين﴾.

***

كانت قريش لا تزال ترتجف..

فصحيح أن الجيش دخل مكة فى سلام.. ولكن ماذا بعد.؟؟

ماذا سيصنع الرسول والمسلمون بأولئك الذين طاردوهم بالاضطهاد ثم بالحرب طوال عشرين عاما..؟؟

هل سيعاملهم كمجرمى حرب..؟ وعلى أى شاكلة سيكون القصاص..؟!

ونودى الناس ليستمعوا خطاب رسول الله.. واجتمعوا من كل صوب، ووقفوا مبهورين، يطويهم الخوف، وينشرهم الرجاء.. ووقف التاريخ ليسجل للبشرية كلها مشهدا جل عن النظير..

وعلى باب الكعبة وقف رسول الله واستهل خطابه فقال:

"لا إله إلا الله وحده، لا شريك له"

"صدق وعده"

"ونصر عبده"

"وهزم الأحزاب وحده"

نصر عبده.. يا لروعة الاختيار..!

لماذا لم يقل: نصر رسوله أو نبيه..؟؟

إنه فى هذا المقام بالذات حيث نشوة النصر قد أسكرت كل شىء حتى جبال مكة الشامخات، يكون لكلمة (عبد) ترياقها العظيم.. وهذا هو جوهر عظمة (محمد) ﷺ!!

إنه لا يرى نفسه أبدا شيئا أكثر من عبد لله وخادم.. وفى هذا الموطن، حيث تم له النصر والغلب، وحيث زالت دولة خصومه وأعدائه، وحيث ارتفعت راياته تملأ فى جلال النصر جو السماء.. الآن وفى هذا الموطن يبلغ شعوره بالعبودية لله أعمق وأبعد مداه.!

وبعد أن يهلل لله ويكبر، ويوحد ويمجد، يبدأ خطاب النصر الذى أرهقت لسماعه القلوب.

ترى كم سيطول خطاب النصر هذا..؟ وكم سيأخذ من ساعات ذلك اليوم المشهود..؟؟ وماذا ستكون كلماته الآخذة القاهرة.؟

لننظر

"يا معشر قريش.."

وفى لحظة الصمت التى أعقبت هذا النداء ازدحمت مئات

الخواطر فى حسبان القرشيين، كلـها تتخيـل العبـارة التاليـة، صاعقـة تسحق ما قدمت أيديهم من شر وسوء.

لكـن العبـارة التاليـة كـانت أبعـد مـا تكـون عـن كـل مـا توقعـه المتوقعون:

"إن الله قد أذهب عنكم نخوة

الجاهلية، وتعظمها بالآباء..

"الناس من آدم، وآدم من تراب..

ثم تلا الآية الكريمة:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم مـن ذكـر وأنثـى، وجعلنـاكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

هذا رسول كريم، ليس لديه وقت للضغن ولا للثـأر ولا للقصـاص؛ إن كل حياته منذورة لرسالته.

وهـا هـو ذا بعـد توحيـد الله، يعلـن كرامـة الإنسـان.. لا تفـاخر بالأحساب، ولا تعاظم بالأنساب.. الناس سواء.. وأكرمهم أتقاهم..!!

ثم عاد يقول:

"يا معشر قريش"..

واشرأبت الأعناق مـن جديـد، وزاغـت الأبصـار.. لكـن البشـرى هطلت سريعا كغيث السماء:

"ما تظنون أنى فاعل بكم".

وهدرت الجموع الوجلة بكلمة واحدة، كأنمـا كـانوا علـى اتفـاق بترديدها..

"أخ كريم"..

"وابن أخ كريم "

وتهلل ثغر المصطفى، وقال:

[اذهبوا .. فأنتم الطلقاء] !!!

هذا هو خطاب النصر فى يوم النصر العظيم..

لم يستغرق سوى دقيقتين أو ثلاث. مجد الله فيها وحمد..

وأعلنت كرامة الإنسان الجديد الذى ينشئه الإسلام.. وغمر المذنبون الذين كانوا ينتظرون القصاص ويستحقونه، بأنبل عفو، وأجمل صفح..!!

هذا هو سلوك الرسول ومسلك الإسلام..

***

ترى، فيم إذن كان أمره عليه السلام بقتل نفر من المشركين سماهم بأسمائهم، وأمر بقتلهم ولو وجدوا لائذين بأستار الكعبة؟

إن الصورة العريضة والمشرقة لسلوك الرسول يوم الفتح تومىء بالجواب.

فلو كان الأمر بقتلهم باعثه الترة والتشفى والانتقام لكان أولى بذاك رجال مثل "أبى سفيان" و "عكرمة بن أبى جهل" وعشرات من أساطين قريش العنيدين.

ولو كان للتشفى والرغبة فى الانتقام يومئذ وجود، لرأينا آثارهما فى المسلك العام للفاتحين.

إذن لابد أن يكون لهؤلاء من الجرم ما يعلم رسول الله أن قتلهم قصاص يفرضه العدل والقانون..

ونأخذ صورة هذا الاستنتاج من أحد هؤلاء الذين أباح الرسول

دماءهم. وهو عبد الله بن خطل.. كان مسلما وبعثه الرسول ذات يوم فى مهمة جمع الزكاة، وبعث معه مسلما من الأنصار يخدمه ويعاونه.. ولكنه فى الطريق غدر بأخيه المسلم وقتله، ثم ارتد عن الإسلام إلى الوثنية والشرك..

هذا إذن قاتل، ارتكب جريمة قتل عمد، ثم غير دينه ليهرب من القصاص

إن كل قوانين الأرض، لا تسمح له طبعا بهذا الهروب والإفلات..!!

على أن معظم الذين أمر الرسول بقتلهم يومئذ لم يقتلوا بل جاء بعضهم نادما فعفا عنه الرسول، وشفع لآخرين بعض أصحابه فنالهم منه صفح وعافية.

لم يكن يوم الفتح العظيم يوم تشف ولا انتقام.. بل كان يوم بر ورحمة وسلام.

ولقد حدث يومها والرسول يطوف بالبيت أن اقترب منه "فضالة بن عمير" يريد اغتياله.. وظل يدافع الزحام حول الرسول حتى حاذاه وأصبح قادرا على توجيه ضربته فى غير عناء..

وفجأة رأى الرسول يلتفت إليه ويقول:

"أفضالة.. ؟"

واضطرب الرجل وأجاب:

نعم، فضالة، يا رسول الله.. !!

وسأله الرسول:

"بم تحدث نفسك يا فضالة..؟

قال فضالة وقد ازدادت بلبلته واضطرابه:

لا شيء .. إنما أذكر الله..!!

وضحك الرسول، وقال له: "استغفر الله، يا فضالة.." ثم وضـع يـده الحانية المباركة على صدره..

واسمعوا فضالة يقول:

"والله، ما رفع يده عن صدرى حتى صـار، ومـا أحـد مـن خلـق الله أحب إلى منه"!!

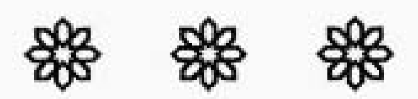
وانضم فضالة إلى موكب الإسلام وجماعة المسلمين..

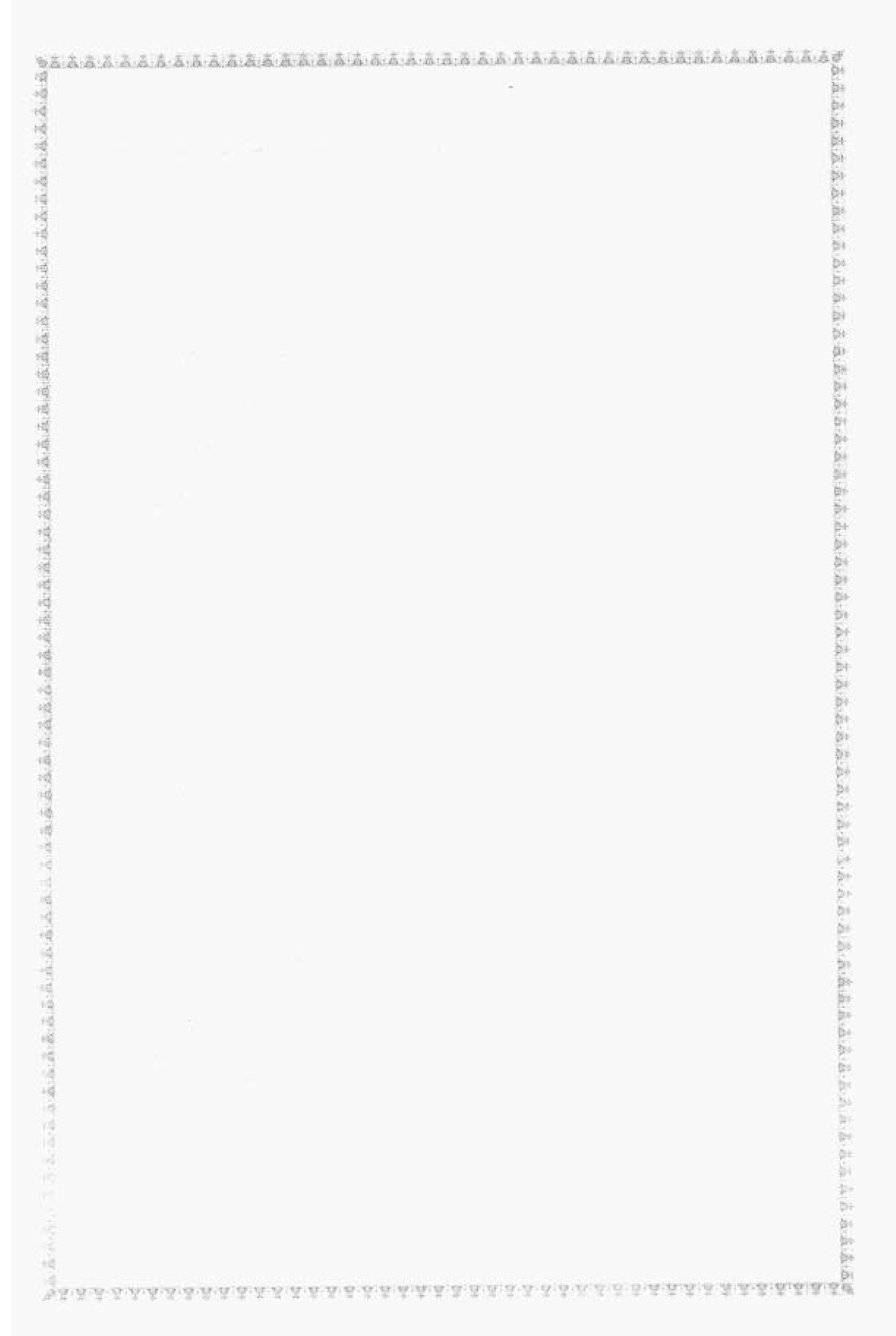
فهل عرفـت الدنيـا تسـامحا كـهذا التسـامح، وبـرا كـهذا الـبر.. وإنسانا كهذا الإنسان..؟

إن روعة التسامح الذى شهده يوم الفتح تتمثل فى أنه لم يكن مجرد مبدأ يقرر ويعلم ويبشر بـه.. بـل كـان تطبيقـا وممارسـة داخـل ظـروف تكافأت فيها عوامــل النجـاح وعوامـل الإخفـاق.. بـل كـانت عوامـل الإخفاق، أعنى إخفاق فضيلة التسامح فى السيطرة على الموقف، كانت يومئذ أكبر وأرجح، بسبب ما لقى المسلمون منالمشـركين مـن عـذاب وهلاك..

لكن النبوة كانت هناك فى شخص خاتم النبيين وإمام المتقين فربح التسامح الموقف بغير منافسة وبغير عناء..

واستطاع رسول الله بتوفيق ربه ونعمته، ثم بعظمة نفسه ونبل شمائله، أن يجعل من يوم الفتح هذا شرفا للإنسان، ونورا للحياة..!!.





(٨)

يوم حنين

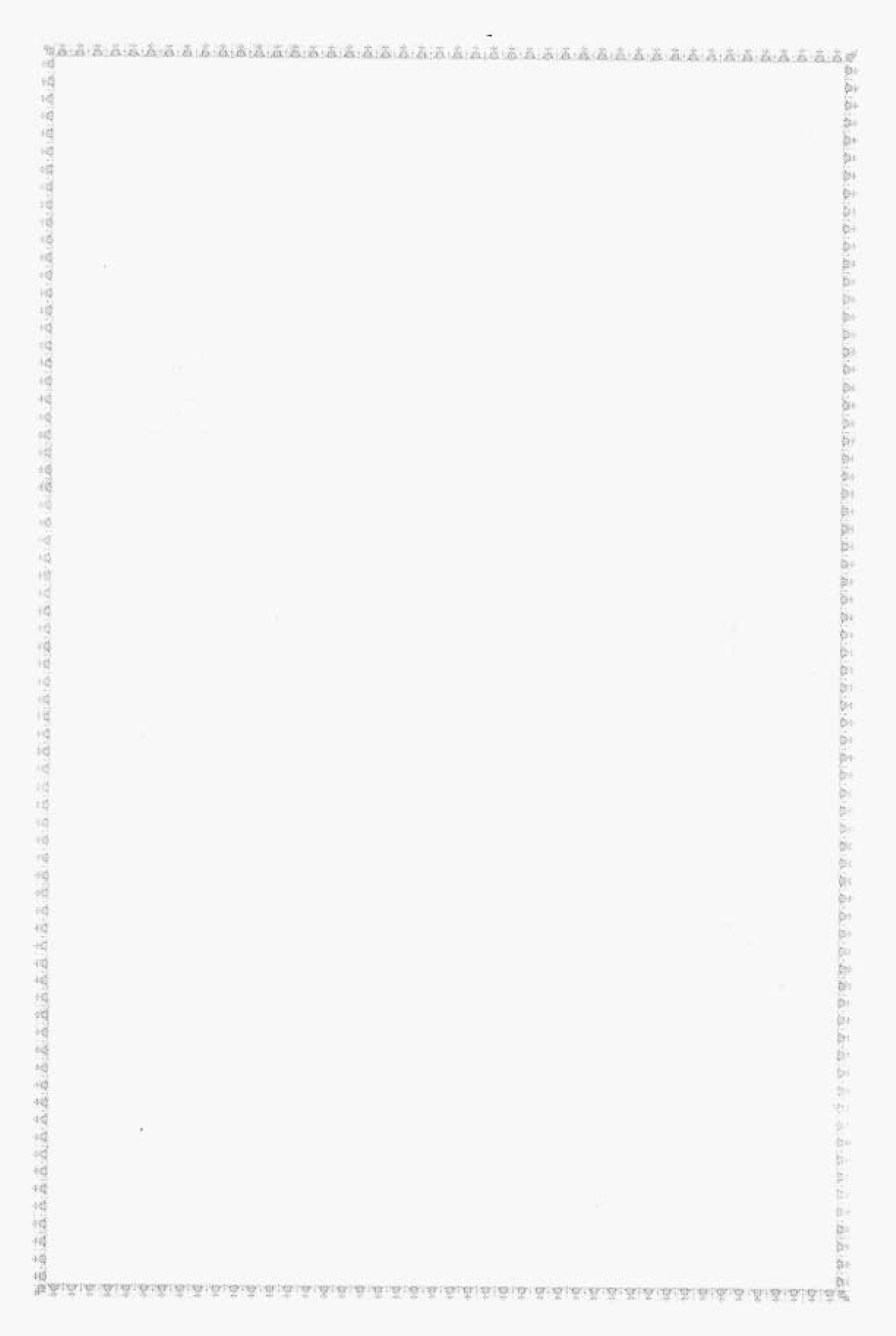
﴿ أعجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكم ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾

❀

❀

❀

❀



لعل أصدق وصف لهذا اليوم أن نقول: إنه كان "يوم الله" ..

كان يوم آياته.. ويوم معجزاته.. ويوم التمحيص الذى رد المؤمنين إلى ربهم خشعا عارفين..

و "يوم الله" .. الذى تجلت فيه حكمته سبحانه فى اختيار "محمد بن عبد الله" للرسالة، ولقيادة البعث الجديد والمجيد الذى أراده الله للعرب خاصة وللبشر كافة..

***

إلى الجانب الشرقى من مكة، كانت تقيم قبيلة من كبريات قبائل العرب، ومن أشدها بأسا، وأكثرها تمرسا فى الحرب وضراوة فى القتال - تلك هى قبيلة "هوازن" .. نادت إليها قبائل ثقيف، ونصر، وجشم، وقرروا أن يبطشوا بالمسلمين بطشة كبرى.. ظانين أنهم إذا قدروا عليهم وأنزلوا الهزيمة بهم، فإنهم يرثون كل أمجاد مكة وقريش..

إن مكة وقريشا قد أذعنتا يوم الفتح، ومن لم يسلم منهم فقد استسلم، وانتهت مكة تماما كمركز لمقاومة الرسول والإسلام وإذن، فحين تهزم هوازن وحلفاؤها المسلمين، تصبح صاحبة الحق الأكيد فى تبوء زعامة العرب وأخذ المكانة التى كانت لقريش فيهم.

وتحت إمرة رجل طموح اسمه "مالك بن عوف النَّصْرى" خرجت تلك القبائل فى أعداد لَجِبَة هائلة من المقاتلين الأشداء .

ولمناسبة كلمة (قبائل) أود أن أنقل عن كتابى "رجال حول الرسول" هذه الفقرة:

"لا ينبغى أن تخدعنا عن طبيعة تلك الحروب التى كان يخوضها الرسول طوال حياته فنظن أنها كانت مجرد مناوشات بدوية صغيرة.. فليس هناك حروب أشد ضراوة من حروب تلك القبائل فى معاقلها..

وإدراك هذه الحقيقة، لا يعطينا تقديرا شديدا للجهد الخارق الذى بذله رسول الله ﷺ وأصحابه فحسب.. بل يعطينا كذلك تقديرا صحيحا وأمينا لقيمة النصر العظيم الذى أحرزه الإسلام والمؤمنون.. ويعطينا رؤية واضحة لتوفيق الله الماثل فى هذا النجاح وذلك الانتصار "

***

خرجت تلك القبائل تحت إمرة ذلك الرجل الطموح، الذى أخرج مع المقاتلين أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ليوحى إليهم أنها معركة مصير، وأنها معركتهم الوحيدة، إذا أصابتهم فيها هزيمة، فستسحقهم وأهليهم وذراريهم وأموالهم.

وأرسل الرسول أحد أصحابه ليعرف له أنباء القوم وجدية استعدادهم ونواياهم.

وعاد رسوله بصورة واضحة عن الموقف كله، وهو موقف قوم يصممون على شن حرب عاتية ضد المسلمين.

كان مع الرسول عشرة آلاف، هم الذين سار بهم إلى فتح مكة،

وانضم إليهم ألفان من أهل مكة، منهم من أسلم يـوم الفتـح ومنـهم مـن بقى على دينه. وهذه صورة بـاهرة لبركـات الموقـف الإنسـانى المجيـد الذى وقفه الرسول يوم الفتح فى أوج انتصاره..!!

لقد دفع هذا الموقـف القرشـيين الذيـن لـم يغـادروا دينـهم ولـم يدخلوا فى الإسلام بعد، إلى أن يموتوا فى سبيله، فخرجوا معه ـ عليـه الصلاة والسلام ـ للقاء هوازن وحلفائها.

كان تعداد الجيـش ـ إذن ـ اثنـى عشـر ألفًـا .. عـدد كثـير يبعـث الزهو، لا سيما والمسلمون قد فتحوا بالأمس القريب البلد الذى كـان عاصمة الوثنية فى الجزيرة كلها، ومركـز المقاومـة الضاريـة للإسـلام وجماعته.

هنالك أزدهاهم النصر، والعدد الكثير، وقالوا :

[لن نُغلب اليوم منْ قلِة]..!!

قلَّة، وكثرة.. ما لجند الله، وهذا الحساب..؟!

لقد وضعوا قوتهم الذاتية فى الميزان.. بينما الميزان كله بيـد الله، وليس فى كفته الراجحة سوى فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين.

إن المسلمين بَشَر.. ويبدو أن فتح مكة على تلك الصـورة السـريعة والمذهلة التى تمَّ بها، يوشك أن يفتنهم بأنفسـهم وبقوتـهم فليكـن لـهم درس سريع يردهم من فورهم هذا إلى مدارهـم الحـق حـول الله وحـده، صاحب الفضل والنعمة فى كل ما كان، وما سيكون.

***

كان وادى حُنين، الذى دارت فيه المعركة كثير الأغوار والمضايق والمنحدرات.

ولقد سبقت هوازن وحلفاؤها إلى الوادى، وكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه.

وجاء المسلمون ليحتلوا الوادى، دون أن يعرفوا أن هوازن قد سبقتهم إليه.. وحين بلغوه، كان الصبح يتنفَّس ويبعث بشائر ضوئه فى خفوت، وبينما المسلمون ينسابون بأعدادهم الكثيرة فوق منحدرات الوادى، إذا النبال والحراب والسيوف ترشهم فى بغتة مزلزلة، أوقعت فى صفوفهم من الفزع والهلع ما لم يصابوا بمثله أبداً حتى فى يوم "أُحد" الرهيب..!!

وهكذا أراهم الله الخبير العليم أن كثرتهم لم تغْن عنهم شيئًا.

وأنه ليس من حقهم أن ينسَوْا ما نزل به الوحى على رسولهم:

﴿وما النصرُ إلا من عند الله﴾

لقد لقنهم القدر هذا الدرس فى أوانه..

وانتقل بهم فى نفس اللحظة إلى درس آخر جديد..

ذلك أنه حين اضطربت صفوفهم، وولَّوا راجعين بعيداً عن المنحدّر العريض الذى فاجأتهم هوازن من مكامنه، وقف الرسول وحده فى ثبات يصعب تصوره.. وقف ينادى بأعلى صوته غير مُحاذر أن يدلَّ الصوت أعداءه عليه.

"إلى أين أيها الناس"

"هلمُّوا إلىَّ"

"أنا رسول الله"

"أنا محمد بن عبد الله"

"أنا النبى، لا كذب"

"أنا ابن عبد المطَّلِب"

لم يكن معه ولا حوله آنئذ سوى أبى بكر، وعمر.. وعمه العباس، وابن عمه علىّ، وأسامة بن زيد.. وأبى سفيان بن الحارث، وابنه.. والفضل بن العباس وأخيه قُثَم، وربيعة ابن الحارث، وأيمن بن عُبيد..

أجل، بقى الرسول وحده، وسط هؤلاء العشرة أو الأحد عشر من أصحابه، فى قلب المنحدر الرهيب الذى برزت منه فجأة مئات المحاربين من هوازن تخفق فوق رءوسهم رايتهم السوداء، وتمتلئ أيديهم بسيوف الموت وحراب المنايا..!!

ثبت الرسول فى الموقف الرهيب ليكون ثباته آية يزجيها القدر على أنه فى كل غزواته، لم يكن يستمد الشجاعة من جيشه؛ بل كان الجيش هو الذى يستمد الشجاعة والثبات منه.

هذه الحقيقة التى عبَّر عنها أصدق تعبير الإمام على كرم الله وجهه حين قال:

[كنا إذا اشتد القتال وحمى الوطيس،

احْتَمَيْنَا برسول الله]..!!

وقف ابن عبد المطلب.. ينادى:

"أنا النبُّى، لا كَذِب"

وأمر عمَّه العباس ـ وكان جسيمًا جهورى الصوت ـ أن ينادى، فصاح:

"يا معشر الأنصار"

"يا أصحاب البيعة"

وصدحت نداءات الرسول وعمه فى آذان الذين شَتَّتَتْهُمْ مفاجأة

هوازن، فانقلبوا راجعين كالجبال يطحنون المنحدر طحنًا، وراحت سيوفهم ونبالهم ورماحهم تحاصر هوازن وحلفاءها بالموت وبالأسْر، وصاح الرسول فى حماس وابتهاج.

[الآن حَمِيَ الوَطِيس]

وراحت خيل الله تصهل، وهى تطأ بأظلافها القاهرة خيل اللات وخيل هوازن.

وتمَّ الدرس الثانى من دروس حنين بنجاح..

وبعد حين قريب سيسجل الوحى ببعض آياته هذه الظارهة فيقول:

﴿ويوم حُنَيْن، إذ أعجبتكم كثرتُكم،

فلم تُغْن عنكم شيئًا، وضاقت عليكم الأرض

بما رَحُبَتْ، ثم ولَّيتُم مُدْبِرين

ثم أنزل الله سَكينته على رسوله، وعلى

المؤمنين. وأنزل جنودًا لم تروها، وعذَّب

الذين كفروا. وذلك جزاء الكافرين﴾.

لقد تجلى فى هذا المشهد، من أى جوهر فريد يختار الله رسله.. وتجلى فى هذا المشهد ثبوت المعجزة الإلهية وعملها.. فمن ذا الذى عصم رسول الله من موت محقق وقد صار وحيدًا بين مئات السيوف والنبال والرماح..؟

لنصغ إلى واحد منهم هو (شيبة بن عثمان بن أبى طلحة) كان أبوه قد قتل بسيوف المسلمين يوم أحد:

" وقلتُ: اليوم أدرك ثأرى

من محمد.. اليوم أقتل محمدًا..

فالتفت حوله لأقتله، فإذا شيء يتغشى

فؤادى لا أطيقه،

فعلمت أنه معصوم منى"..!!

ومن الذى ردّ الانكسار المباغت إلى نصر كاسح فى مثل لمح البصر..؟

إنها معجزات الله الصادقة:

﴿والله غالبٌ على أمره﴾

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

لقد أسفر القتال عن كثرة كاثرة من قتلى المشركين.. وستة آلاف أسير.. وبحر زاخر من الغنائم والأسلاب.. وفرّ قائد جيش الشرك (مالك بن عوف النصرى) ومعه مجموعة من المنهزمين حيث احتموا وراء حصون الطائف. فلحق بهم جيش الإسلام وضرب حول الطائف حصارًا محكمًا..

ترى، لماذا طارد الرسول - عليه السلام - الجيش المنهزم وفرض على الطائف الحصار، وهو الذى رأيناه يمارس إجراءاته الحربية فى نطاق الضرورة القصوى..؟؟

إنه طارده، وحاصر مقره الجديد، لا تغييرًا لمنهجة المسالم الرحيم، بل دَعْمًا لهذا المنهج وتمكينًا.. ففى الطائف يمكن للجيش الهارب ولقائده الطموح، أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ليواصلوا الفتنة والحرب من جديد ومعهم حلفاؤهم من ثقيف.

من أجل هذا، لم يكد الرسول الكريم، يدرك أنهم قد ملّوا سلاحهم، وأمْسَوْا أعجز من أن يعودوا للقتال حتى اتخذ موقفًا

جديدًا ، ينقلنا إلى المكرمة الثالثة من مكارم يوم حنين ودروسه وأمجاده..

***

لقد أمر الرسول برفع الحصار عن الطائف بعد أن لبث قرابة عشرين يومًا .. واقترح عليه بعض أصحابه أن يدعو على ثقيف ويلعنها ، فإذا هو يرفع كفيه إلى السماء ضارعًا:

"اللهم اهْدِ ثقيفًا"

"وأْتِ بهم مُسلمين"...!!

وانصرف عليه السلام عن الطائف، حتى بلغ (الجعرانة) فنزل بها مع جيشه. وهناك قدم عليه وفد من هوازن.. القبيلة التى دبرت للإسلام وللمسلمين أخبث مؤامرة، واضْرى قتال:

جاء وفدها يسأل الرسول أن يترك لهم أسْراهم، وكان فيهم كثير من النساء والأطفال الذين أخرجهم مع الجيش قائده (مالك بن عوف النصرى) ليثير وجودهم حَمِيَّة المقاتلين، فأمر الرسول بإطلاق سراحهم جميعًا وردّهم إلى ذويهم.

وقائد الفتنة (مالك بن عوف) ماذا صنع الرسول به..؟؟

هذا الذى خرج يريد رأس محمد.. ودين الله.. وحصد المسلمين..؟؟

انظروا، يا أهل الأرض فى كل زمان، ومكان..

لقد سأل الرسول وفد هوازن:

"أين مالك بن عوف..؟؟

قالوا: "هو بالطائف مع ثقيف.."

كان قادرًا أن يبعث إليه مـن يقتلـه أو يأسـره.. بـل كـان قـادرًا أن يستخدم وفد هوازن نفسه لإنجاز هذه المهمة كشرط لتسريح أسْراهم.

لكنه فعل ما لا يقدر عليه سواه ـ ﷺ ـ.. فقد قال للوفد:

"أخبروا مالكًا، أنه إن جـاءنى مسـلمًا، رددت عليـه أهلـه ومالـه، وأعطيته مائة من الأبل"..

إنه لا يؤمنه على حياته فحسب.. بل ويضمن له العيش فى المستوى الرغد الذى كان يعيش فيه كواحد من زعماء عشيرته !!

ويحمل الوفد إلى (مالك) البشرى.. فيـأتى مـهرولاً إلـى الرسـول الكريم الرحيم.. ويسلم، ويحسن إسلامه، بل ويعبّر عن فرحتـه بالـهدى والإسلام بقصيدة يقول فيه:

مـا إن رأيتُ ولا سمعـتُ بمثـله

فى الناس كلّهـم بمثـل محمـد

أوفى وأعطى للجزيـل إذا اجْتُدى

ومتى تشـأ، يخبرك عما فى غـد

***

أهذا رسول حرب وعنف.. أم رسول سلام ومحبة..؟

إن يـوم حنيـن.. يعطينـا أصـدق تبيـان وتفسير لقضيـة "الإسـلام والحرب" ولأخلاقيات الإسلام فى الحرب.. ليس فقط لما شـهده ذلـك اليـوم مـن مشـاهد الصفـح والنبـل والسـموّ.. بـل قبـل ذلـك لموقـف المشركين فى ذلك اليوم المثير.

إن خروج المشركين للحرب يوم حنين، يُظهر كنور الصباح حقيقة الظروف التـى أكرهـت المسـلمين إكراهًـا علـى أن يحملـوا سـيوفهم

ويخوضوا المعارك لحماية أنفسهم ودينهم، فلقد كان المأمول بعد فتح مكة أن تُخمد إلى الأبد ثائرة الوثنية، وتضع الحرب أوزارها، ويُسْلم المسلمون سيوفهم إلى السُّبات العميق.

لكن الشرّ كان يخفى أخبث مفاجآته، فإذا قبائل أخرى تلتقط الراية التى سقطت من قريش، وتزحف فى جيش كثيف لمحاربة الإسلام وأهله.

إن هذه الصورة، ثم الصورة التى رسمتها غزوة "تبوك" حين تحرّش الروم بحدود الجزيرة العربية.. هاتان الصورتان تفسران فى صدق موقف الإسلام من الحرب، مثلما يفسر مسلكه النبيل فى القتال مدى ولائه للعدل والرحمة والسلام .

***

ويُوشك "يوم حنين" أن يُشارف نهايته التى نلتقى عندها بعجيبة أخرى من عجائبه العظام.

لقد كان الرسول مصممًا على أن يجعل من هذا اليوم "يوم الله" .

لقد رأى نصر الله يتجسّد أمام عينيه، فلم يدرِ كيف يشكر ربه العلىّ الكبير.

لقد انتهت معركة حنين بالنصر، وكل حرب تنتهى بالنصر تطرح على الفور مشاكل السلام، وأولى هذه المشاكل ـ غنائم الحرب.

ولقد كانت غنائم الحروب تمثل بالنسبة للمقاتلين المسلمين حقوقًا مكفولة وهامة.. فهى يومئذ من أهم مصادر المعيشة والرزق.

ويوم حنين، كانت الغنائم من الكثرة بمكان..

وكان هناك آلاف من الإبل والغنم، تملأ الأعين وتُسيل اللعاب.. وبينما المسلمون الأوائل يتطلع كل منهم إلى قَسْمه ونصيبه إذا بالرسول الذى قرر أن يجعل من يوم حنين "يوم الله" إذا به ينادى المؤلَّفة قلوبهم من مسلمة الفتح الذين لا يزال إسلامهم على شفا المنفعة والنكوص، فيعطيهم من الغنائم بغير حساب، حتى إذا بقى منها قليل راح يوزعه على بعض فقراء المهاجرين..!!

أما الأنصار، والمسلمون الأوائل والكبار، فقد فوجئوا بالغنائم تزَّاوَرُ عنهم إلى الآخرين..

وكانت مفاجأة لم يعوّدهم الرسول بمثلها من قبل، وفى زحمة النصر والناس والغنائم، لم تأت الفرصة ليعطى تفسيراً لما حدث فكان طبيعيًا أن يكون الموقف موضع تساؤل، بل وإحساس بالأسف والمرارة لا سيما من الأنصار الذين لم تُصب الغنائم منهم أحداً.

ولقد عبّر عن هذا الإحساس شاعر المسلمين والأنصار "حسان بن ثابت" فقال:

وأتِ الرسول فقل يا خير مُؤتَمَنٍ
للمؤمنين إذا ما عُـدِّدَ البَشر

علامَ تُدْعى سُلَيم، وهى نازحة
قُدَّام قوم هُمُوا آوَوْا وهم نصَرُوا

سماهُم الله أنصاراً. بنصرهمو
دين الهدى، وعوانُ الحرب تَسْتَعِر

ودخل زعيم الأنصار (سعد بن عُبادة) خيمة رسول الله، فقال:

[يا رسول الله، إن هذا الحىَّ من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء].

قال الرسول : "فأين أنت من ذلك يا سعد"؟؟

قال سعد: ﴿ما أنا إلا من قومى﴾..

فأمره الرسول أن يجمع له الأنصار، فجمعهم سعد، حيث خرج إليهم رسول الله، وقام فيهم يتحدث، فحمد الله وا ثنى عليه، ثم قال:

"يا معشر الأنصار..

مقالةٌ بلغتنى عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها علىّ فى أنفسكم..؟

"ألم آتكم ضُلالاً، فهدا كم الله.. وعالةً، فأغنا كم الله.. وأعداءً، فألّف الله بين قلوبكم..؟

أجاب الأنصار هاتفين:

[بلى .. الله ورسوله أمَنُّ وأفضل].

واستأنف الرسول حديثه فقال:

"ألا تجيبوننى أيها الأنصار"..؟

قالوا: وقد غلبهم الحياء:

[بماذا نجيبك يا رسول الله..؟ فلله ولرسوله المنُّ والفضل].

قال الرسول:

"أما والله، لو شئتم لقلتم، فلَصَدَقْتُم وصُدِّقْتم.

"أتيتنا مكذَّبًا، فصدقناك.. ومخذولاً، فنصرناك.

وطريداً، فآويناك .. وعائلاً، فآسيناك ..

"أوَجِدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم من أجل لُعاعة من الدنيا

تألفت بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم..؟؟

"ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير.. وترجعوا أنتم إلى رحالكم برسول الله .؟؟

"فوالذى نَفْسُ محمد بيده، لولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت الأنصار شِعبًا، لسلكت شعب الأنصار.

"اللهم ارحم الأنصار.. وأبناء الأنصار.. وأبناء أبناء الأنصار.."!!!

***

لم يكد الأنصار يستمعون هذه التحية الماجدة، ينثر عليهم زهورها الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه حتى فاضت أعينهم من الدمع، وعلا نشيجهم وبكاؤهم .

لقد رفعهم الرسول فى يوم الله هذا، إلى مُستوى اليوم العظيم وبدا تفسير ما حدث يستبين أمام جميع المسلمين.. إنه يريد أن يجرد نفسه وصحبه فى هذا اليوم العظيم من كل سبب إلا الولاء المطلق لله رب العالمين - حتى حقهم المشروع فى الغنائم والفىء يلقيه وراءهم ظهْريًا ليكون يوم الله هذا، يوم تجرُّد وتبتُّل كاملين..! وليعلم المسلمون، ويعلم الناس جميعًا أن غنائم الحرب وإن تكن حقًا مشروعًا للمقاتلين، وسدادًا لحاجات معايشهم وأرزاقهم إلا أنها ليست شيئًا مقصودًا لذاته، وليس لها مع هذا الجهاد فى سبيل الله مكان..!!

ولم يكن هناك بين الغزوات جميعها غزوة يكون تلقين هذا الدرس فيها مجديًا وحاسمًا وأخاذًا مثل هذه الغزوة فى يوم حنين..

فالغنائم فيها من فضة وذهب، ومن إبل وغنم، شىء يفوق الوصف..

شيء يتطلب الزهد فيه والعزوف عنه قدرة روحية خارقة، ولقد أراد الرسول أن يكتسب أصحابه وأنصاره هذه القدرة الروحية الخارقة في هذا اليوم الإلهي العظيم .

وهكذا، ترك الغنائم التي تفتن الألباب تذهب للمؤلفة قلوبهم من حديثي الإسلام، بينما ترك للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مثوبة الله ورضوانه.. وفردوس الإيمان وجناته..!

لقد سئل عليه السلام عن صحابي فقير من غفار، اسمه "جعيل بن سراقة الضمري" لماذا لم يعطه، بينما أعطى عيينة ابن حصن، والأقرع بن حابس وليس لهما في الإسلام مكان؟

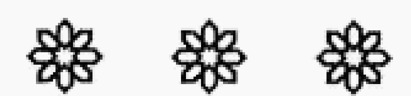
فكان جواب الرسول:

"والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من ملء الأرض من أمثال عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس.

"ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة لإسلامه.."

أجل.. لقد جعل عطاء أصحابه الأبرار في ذلك اليوم إيمانهم وتبتلهم، وربانيتهم..

وكفى به عطاء.. وكفى به جزاء..!!



(٩)

يوم التخيير

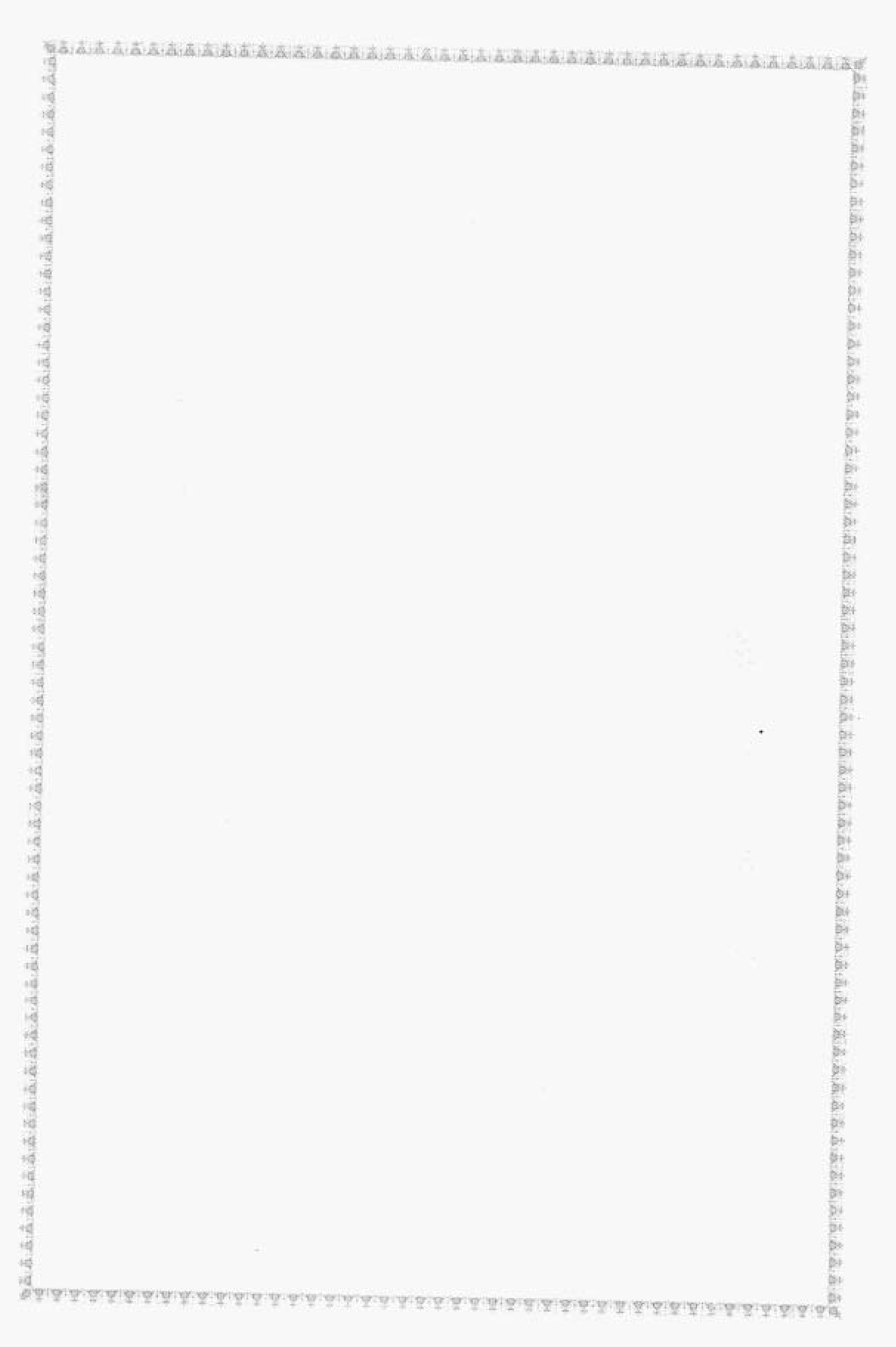
﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ ، قُلْ لأَزْوَاجِكَ.. ﴾

❀

❀

❀

❀



هنا تَنْداحُ مفاتح الزمن، لتقدّم بين الأيام العظيمة فى حياة رسول الله، هذا اليوم الأغر الجليل.

وهو يوم، تعودنا أن نمر بوقائعه مسرعين، لا نكاد نعى منها إلا أن الرسول غاضب أزواجه، لأنهن أردن منه أن يوفر لهن شيئًا من مناعم الحياة، فأبى الرسول ذلك، ونزل الوحى مؤيدًا موقف الرسول، ومعاتبًا زوجاته فى لهجة التأنيب والتهديد.

وعلى الرغم من أن النظرة السريعة كافية لإظهار العظمة النادرة التى تنطوى عليها تلك الوقائع، إلا أن ما وراء النظرة السريعة والشكل الخارجى للأحداث، أمر رائع تكاد القلوب وهى تتملاّه، تقفز من مكانها وتطير..!!

ولكن، وقبل أن نواجه الموضوع، علينا أن نقف قليلاً مع كلمة "أزواج" حيث اعتاد نفر من المريبين والمستريبين أن يتخذوا منها موضوع غمز.. أو فى أحسن مواقفهم، موضوع تساؤل.

إنهم يتساءلون: لماذا كان لرسول الله هذه الكثرة من الزوجات..؟؟

والجواب عن تساؤلهم، كُتبت فيه كُتب كثيرة؛ وأسفرت الحقيقة فى هذه القضية إسفارًا مبينًا.

لقد بُعث الرسول ـ عليه السلام ـ فى سن الأربعين، وهاجر إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عامًا من بعثته ـ أى وهو فى الثالثة والخمسين.. وطوال هذه المدة المباركة من عمره، لم تكن له سوى زوجة واحدة ـ هى السيدة خديجة.. رضى الله عنها.. وبعد موتها، لم يتخذ لنفسه سوى زوجة واحدة، هى "سودة بنت زمعة" ولبث على ذلك حتى هاجر إلى المدينة، وهناك أعرس بعائشة بنت الصديق.

إن هذه الحقيقة وحدها تدحض كل تساؤل، وتُظهر فى وضوح كامل أن تعدد الزوجات فى حياة الرسول، كان وليد أغراض أخرى أبعد ما تكون عن الرغبة فى إشباع جنسى.

وتأتى الحقيقة الثانية، لتؤكد الأمر، تلك هى أن جميع زوجاته عدا عائشة ـ كنَّ ثيبات ـ ونصفهن عجائز..

وتأتى حقيقة ثالثة، هى أن كل نسائه ـ بعد خديجة ـ تزوج بهن ـ عدا سَودة ـ فى المدينة بعد الهجرة، أى فى السنوات التى قضى ليلها ونهارها فى صراع مستمر لا يهدأ مع المنافقين فى المدينة، والمشركين فى قريش.. وهوازن وثقيف بعد فتح مكة.. ثم مؤامرات الروم بعد أن دانت الجزيرة كلها للإسلام.

إذن، فماذا كان سرّ هذ التعدد..؟؟

لقد كان النبل، والأبوة، والإحساس العميق بالمسئولية وراء تعدد الزوجات فى حياة الرسول.

ويمكن القول: أن الزواج الذى وقع فى حياة الرسول بقصد الزواج ذاته، إنما حدث مرتين:

أولاهما ـ زواجه بخديجة.

ثانيهما ـ زواجه بعائشة، بعد موت خديجة.

أما بقية الزوجات، فقد كان وراء الزواج بكل منهن، سبب غير قصد الزواج.

والحق أن كل هذه الزيجات كانت "إيواءً ورعاية" أكثر منها زواجًا.

ولعل الآية الكريمة توضح هذا المعنى حين تقول للنبى:

﴿تُرْجى من تشاء منهن﴾

﴿وتؤوى إليك من تشاء﴾

كان إيواءً ورعاية لسيدات كريمات، أصابهن من الظروف ما يدعو لإيوائهن ورعايتهن فى أرفع مستويات الإيواء والرعاية.

فـ "حفصة" مثلاً.. استشهد زوجها فى غزوة بدر، وبقيت مترملة زمنًا ليس بالقصير، وكان النبى يرى فى ترملها مشكلة ترهق مشاعر أبيها ـ عمر بن الخطاب ـ الذى عرضها على (أبى بكر) ليتزوجها فاعتذر.. ثم على (عثمان) فاعتذر أيضًا.. هنالك آواها الرسول إلى عصمته.

و (سودة).. أسلمت هى وزوجها (السكران بن عمرو) وهاجرا إلى الحبشة.. وفى طريق عودتهما منها، توفى زوجها وتمنت أن تقضى حياتها فى بيت رسول الله، فتزوجها.

و (أم حبيبة) بنت أبى سفيان.. أسلمت وزوجها عبيد الله بن جحش، وهاجرا إلى الحبشة.. وفى الحبشة غيَّر زوجها دينه واعتنق النصرانية.. وبلغ أمرُه رسول الله. فشغلته مأساة الزوجة الوحيدة فى بلاد الغربة والهجرة..

هذه التى أسلمت مبكـرة فـى الوقـت الـذى كـان أبوهـا وأسـرتها يتزعمون اضطهاد المسلمين.

أهناك عزاء وتكريم يقدمـان لـها فـى هـذه المناسـبة خـير مـن أن يضمها الرسول إليه..؟

ولقد فعل، فأرسل إلى نجاشى الحبشة يطلب إليـه أن ينشئ عقد زواج له بأم حبيبة.. وقام النجاشى بدعوة بعـض المسـلمين المهاجرين وأشهدهم على عقد الزواج، ودفع هو مهر العروس مـن مالـه نيابـة عـن الرسول عليه الصلاة والسلام..!!

إن هذه الواقعة ترينا، كيف كان زواج أولئك الزوجات إيواءً لـهن ورحمة بهن..

فالرسول بزواجه من أم حبيبة على البُعد، لم يكن يقصد الجنس فى الزواج.. فهو فى بلاد.. وهى فى بلاد.. ولقد ظلّت بعيدة عنـه بعـد عقـد الزواج سنين.. إنما أراد بعد أن فعل زوجها ما فعـل ألا يدعـها فريسـة الظروف الصعبة التى حاقت بها فى بلاد الغربـة.. وأراد أن يكـافئ بمـا يستطيع، هذه السيدة العظيمـة التـى هـاجرت إلـى الله ورسـوله، تاركـة وراءها فى بيت أبيها وأهلها.. النعمـة والرغـد والرفاهيـة.. فلـم يجـد لتكريمها أفضل من أن يجعلها إحدى زوجاته المباركات.

(زينـب) بنـت عمـة الرسـول، ذات الحسـب والجمـال، خطبـها الرسول لزيد بن حارثة الذى كان عبداً وأعتقه الرسول، ثم تبناه.

لكن "زينب" لم تظهر ارتياحها لهذا الزواج، وكذلك كـان موقـف أخيها، بيد أنهما أمام رغبة الرسول وافقا، وزُفت "زينب" إلى "زيد" .. لكن حياتهما الزوجية اتسمت بفقدان التفاهم والانسجام، وكـان لابـد

من الطلاق .

وبعد الطلاق، رغبت زينب أن تكون زوجة للرسول، ورأى الرسول نفسه مسؤولاً عن الزج بها فى زواج لم تكن تريده، فلم يكن هناك تعويض لها أقل من تحقيق رغبتها.. وهكذا ضُمَّت إلى أمهات المؤمنين .

و "صفية" بنت حُيىّ بن أخطب زعيم اليهود فى بنى النُضير وفى معركة "خيبر" التى دارت بين المسلمين واليهود، فقدت أباها ، وزوجها ، وأخاها ، ووقعت هى فى أيدى المسلمين بين السبى والأسرى.

ونقل بعض أصحاب الرسول إليه، نبأها ، والرسول عليه السلام كان وافر الأسى والرحمة لكل عزيز قوم يَذِلّ، ولقد دعا "صفية" وخيّرها بين أمرين:

- أن يعتقها ، ويردها إلى من بقى من أهلها .
- أو تسلم، وتكون له زوجةً وأمًا للمؤمنين.

وصاحت "صفية" مغتبطة وشاكرة:

[اخترت الله، ورسوله]

وتزوجها الرسول .

***

على هذا النمط، كان تعدد الزوجات فى حياة الرسول.. كان الزواج فى معظمه نوعًا من الإيواء والكفالة والعزاء والتكريم .

على أن التعدد فى تلك العصور لم يكن يثير أية مساءلة.. بل على العكس كان يعتبر فى أحيان كثيرة نوعًا من التضحية النبيلة.

وماذا نقول عن تعدد الزوجات فى حياة أبى الأديان الثلاثة، وأبى

الأنبياء، وخليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام..؟؟

ثم فى حياة كثير من الأنبياء..؟؟

***

بعد هذه الوقفة القصيرة مع ما تثيره كلمة "أزواج" فى حياة الرسول نعود إلى موضوعنا. موضوع التخيير والمفاضلة اللذين نزل بهما الوحى فى حَسْم شديد وأكيد.

ولنبدأ بتلاوة آية التخيير.

﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحًا جميلاً.. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعدَّ للمُحسنات منكنَّ أجراً عظيمًا﴾.

ماذا كان قد حدث حتى يتنزل الوحى بهذه الآيات التى تحمل طابع الاحتجاج والرفض..؟

إن الذى حدث يومها لعجيب..

كانت الجزيرة العربية قد دانت جميعها بالإسلام، وكان المسلمون قد انتعشت معايشهم بما أفاء الله عليهم من غنائم ومغانم.. وكانت ضريبة الزكاة تحمل إلى المدينة من شمالى الجزيرة وجنوبها فى مواسم الحصاد والعطاء.. ومن الإبل والغنم والأموال، وأخذ الرغد النسبى طريقه إلى كل دار وكل أسرة.

لكن أسرة واحدة ظلت مثابرة على شظف العيش لا تتحول عنه ولا تريم.. يمر الشهر والشهران والثلاثة دون أن تُوقد هذه الأسرة نارًا تطهو عليها شيئًا من ألوان الطعام..

تلك هى أسرة رسول الله !!!

أسرته جميعها..

كان زوجاته يقمن فى حجرات منفصلة إلى جوار المسجد، لكل منهن حجرتها ومسكنها.. وكنّ جميعًا فى شظف العيش سواء.

ليس ذلك فحسب.. بل امتدَّ الشَّظف إلى بيت بنت الرسول (فاطمة الزهراء) التى تعيش بعيداً مع زوجها الإمام على.. فكانت كلما ذهبت إلى أبيها الرسول تسأله من العطاء الذى يعطى منه الناس جميعًا، تسمع منه هذا الجواب:

[.. لا أُعطيك، وأدعُ فقراء المسلمين] !!

ثم يضمُّها إلى صدره حين يرى الدمع يترقرق فى مآقيها، ويقول لها: ـ ألا أدلك على خير من ذلك..

[سبِّحى الله ثلاثًا وثلاثين

واحمدى الله ثلاثًا وثلاثين

وكبِّرى الله أربعًا وثلاثين]..!!!

كان ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ يعرف تمامًا مكانه وآل بيته من الدنيا، ومكان الدنيا منهم.. كان يعلم أنه جاء الحياة ليعطى لا ليأخذ.. ومن ثم عاش وحمل أهله ـ على العيش معه فى مستوى الكفاف.. والكفافُ كثير..!!

***

وحين فُتحت الدنيا على المسلمين، وزُفّ إليهم الكثير من أطايب الطعام واللباس والفراش، بدا لزوجاته أن يسألنه من ذلك النعيم

حظًا.. لم يطلبن، بل لم يَرْغَبن فى أكثر مما يتاح للناس العاديين.. وتحدث بعضهن مع الرسول فى الأمر.

كان الرسول يقدر فيهن طبيعة البشر، وما كان ليضِنّ عليهن بتلبية رغباتهن المتعففة اليسيرة.. لكن أين القدوة إذن.؟ وأين حقوق القدوة على من جعلتهن الأقدار أمهات للمؤمنين..؟

إن القدوة هنا لا تطلب من الرسول وحده، بل ومن كل من تربطه بالرسول صلة نسب أو قرابة.

ألم يقل للإمام على حين سأله مفاتيح الكعبة يوم الفتح:

[إنما أعطيكم ما تُرزأون،

لا ما تَرزءون]..؟!

أوَليس قد وضع لأهله قاعدة: أن يكونوا أول من يجوع إذا جاع الناس.. وآخر من يشبع إذا شبع الناس..؟ بلى وها هو ذا يستكثر أن يكونوا ولو آخر الشباع..!!

ها هو ذا يعيش ويعيشون معه على التمر والماء.. بينما ريح الشّواء تفوح من أكثر البيوت.

ها هو ذا ينام على حصير يترك آثاره الضاغطة على جسده الكريم، حتى إن عمر بن الخطاب.. ليبكى حين يراه، ويسأله أن يتخذ له فراشًا لينًا، فيكون جوابه عليه السلام:

"يا عمر"

"إنها نبوةٌ، لا ملك"!!

ألا إن يوم التخيير هذا.. وإن مسلك الرسول بعد أن فتح الله له ولدِيْنه الجزيرة العربية كلها، وبعد أن صارت كل خيراتها وحاصلاتها

تحت أمره.. نقول إن مسلكه ذاك لأصدق البراهين لمن شاء برهانًا على صدق نبوته ورسالته.

فلأى غرض إذن، لو لم يكن الله غايته ومُرسله ـ كان سيقضى عمره فى العبادة والنسك، ثم فى الجهاد الدائب وتحمل الأهوال التى جابهته بها الوثنية طوال عشرين عامًا ملتهبة بالنار.!

هل ثابر وصابر واحتمل من أجل مجد شخصى.؟ من أجل الاستمتاع الفاغر بالحياة..؟

فأين هو المجد الشخصى الذى تلفّع به وقد صار سيِّد الجزيرة.؟

لقد ظلَّ واحدًا من الناس.. يرفض أى تمايز، ويرفض أن يقوموا له إذا قدم عليهم، ويأخذ بجماع ثوبه واحد من صعاليك الأعراب قائلاً:

[أعطنى، فليس المال مالك ولا مال أبيك]..!!

وأين هو استمتاعه بالحياة، وقد صار تجبى إليه ثمرات كل شىء..؟

لقد ظل على نهجه، يشبع يومًا، ويجوع أيامًا.. وينام على الحصير الخشن.. ويلتحف ببردته.. وتأتيه الهدية من طعام أو كساء وفى أهل بيته من هم فى منتهى الحاجة إليها، فإذا هو يؤثر بها فقيرًا من أصحابه. ويمر الشهر والشهران وما يوقد فى داره نار تطهو طعامًا..!!

لا مجد إذن ينشده، ولا رفاهية، ولا سيادة. ففيم كان ركوبه الصعاب واحتمال الأعوال فى سبيل الإسلام..؟

لا شىء، إلا أن الإسلام كان كلمة الله.. وهو، كان رسول الله..

***

وهكذا، رأيناه يغضب، حين رأى زوجاته يردْن الخروج إلى

الدنيا.. إلى نعيمها، ومباهجها وزينتها.. ويتنزل الوحى بتأييد موقفه، وبرفض موقف الزوجات.

﴿يا أيها النبى قل لأزواجك، إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أمتعكن، وأسرحكن سراحا جميلا﴾.

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾.

أجل.. لا مكان للدنيا فى بيت النبوة، والله لا يريد لهن إرغاما.. فمن شاءت الدنيا فلتغادر بيت النبوة ولتتخل عن مكان القدوة.. ولتأخذ من طيبات الدنيا بعد ذلك ما يأخذ بقية الناس.

أما من كانت تريد الله، ورسوله، والدار الآخرة، فلها ذلك، ولها الأجر العظيم من الله، شريطة أن تنبذ الدنيا وراءها ظهريا، وأن تتقبل فى غبطة وراحة شظف الحياة فى بيت النبوة والوحى واليقين..!!

ونهض الرسول إلى زوجاته يتلو عليهن واحدة بعد واحدة كلمات الله، ويبلغهن حكمه وتخييره.

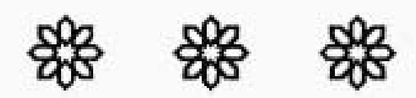
ويبدأ بعائشة، ثم بقية الزوجات.. وما منهن واحدة تسمع آى الله إلا تصيح:

[.. بل أختار الله ورسوله]..

وهل كان ينتظر منهن غير ذلك..

أفئن وضع رضوان الله ورسوله فى كفة، ووضعت مباذخ الدنيا فى الكفة الأخرى، يكون ثمة مكان للاختيار وللخيار.. وممن.؟ من زوجات الرسول وأمهات المؤمنين..!

لقد أراد الله سبحانه أن يجعل من يوم التخيير ووقائع المفاضلة مزيداً من الإيضاح لجوهر الحياة اللائقة برسله وصفوته من خلقه.. ومزيداً من التوكيد على هوان الدنيا وهوان ما يقتتل عليه الحمقى من زخرفها الباطل وأمجادها الكاذبة.. ثم درساً بليغاً للناس ـ في كل عصر وزمان، لكي يبصروا طريق الرشد، ويختاروا بين عالم الله، ودنيا الناس..!!

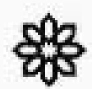


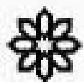


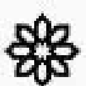
(١٠)

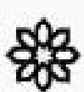
يوم الوداع

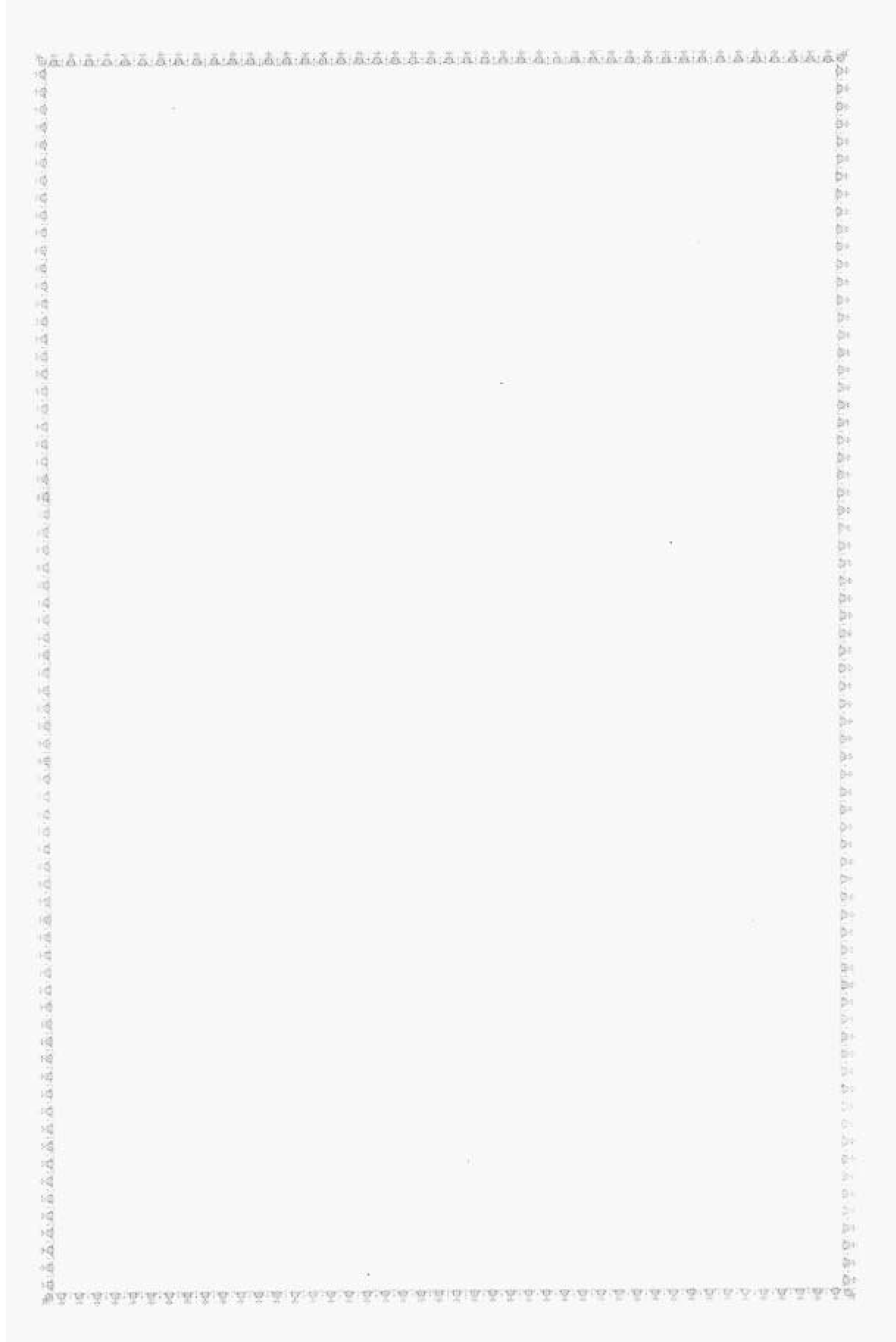
﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابًا ﴾











أتم الله عليه نعمته، وأمسى قرير العين والفؤاد إذ رأى الشرك والوثنية قد كُنِسا من الجزيرة العربية.. وطهر بيت الله للطائفين والعاكفين والرُكَّع السجود. فلم يعد يطوف بالبيت مشرك..

ولم تعد هناك (مناة.. ولا عزى، ولا هبل، ولا اللات) ولا أىّ شىء من تلك الأصنام التى طالما سجدوا لها هم وآباؤهم.

عاد دين إبراهيم إلى وطنه. مسبّحًا بحمد الله مقدّسًا له.

وبلغت كلمات الله إلى ملوك الأرض عن طريق الرسل الذين انتدبهم الرسول الكريم لهذه المهمة الجليلة.

وعلى قمة ثلاث وعشرين سنة قضاها وصحبه الأبرار فى مُعاناة ونضال، ترتكز الآن سارية النصر حاملة راية الله التى تغطى أرض الجزيرة كلها بمجدها وسناها وهُداها.

ما أروعها من سنوات.. وما أمجدها من حياة..!!

***

وفى أواخر ذى القعدة من السنة العاشرة شدّ رحاله إلى بيت الله الحرام، وشد المسلمون معه الرحال.

وفى "عرفات" تنزَّل عليه الوحى بهذه الآية الكريمة:

"اليوم أكملتُ لكم دينكم"

"وأتممت عليكم نعمتى"

"ورضيت لكم الإسلام دينًا"

كمل الدين، وتمت النعمة، وساد الإسلام..؟

إذن، فالمهمة قد انتهت، والرحلة قد شارفت مداها..

ومن "دار الأرقم" إلى "مدينة الرسول" إلى دنيا الناس وعالم البشر، يواصل النور سيرته ومسراه.

لقد أوقد "محمد وأصحابه" الشعلة المباركة.. وكتب الله ألا يخفت لها أبدًا ضياء.

لقد أُديت الرسالة، وبلغت الأمانة، وأصبحت كلمة الله هى العليا.

أترى الرحيل، قد آن أوانه..؟ وحق للمسافر أن يعود إلى داره..؟؟

بلى.. آن موعد العودة والرحيل.

وفى "منى" بعد أن تمت شعائر الحج، وآذنت أيام التشريق، جاءه الوحى بهذه الآيات"

﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا﴾

وتلا الرسول على أصحابه ـ كعادته ـ هذا الوحى الجديد، فازدادوا به طمأنينة وفرحًا، لما يحمله من توكيد لاستمرار نصر الله وفتحه..

لكن أبا بكر، وعمر، والعباس فاضت أعينهم بالدمع إذ وجدوا فيه نعيًا لرسول الله وإيماءً بقرب رحيله.. ولقد صدق الرسول فهمهم هذا،

وأنبأهم أن هذه الآيات تنعَى إليه نفسه.

***

هكذا يومئ الوحي وينبئ بقرب وفاة الرسول ..

إذا تمت كلمة ربك الحسنى، وانتصر دينه وتفتحت أمامه الآفاق ورأيت الناس يسعون إليه ويدخلون فيه أفواجًا بعد أن كانوا يستخفون به، أو يعرضون عنه، فتهيأ للقاء ربك الأعلى .

لم يعد للرسول مكان في دنيا الناس بعد أن انتهت مهمته.. إنه لا يُعطى ولو بضع سنوات يحتفل خلالها بالنصر ويحيا في بحبوحة ورفاهة.

ولقد كانت هذه النهاية السريعة تعني أعظم التكريم والتمجيد لرسول رب العالمين.

ذلك أنها تكشف عن مقام الرسول عند الله.. إنه رسوله ومبعوثه إلى دنيا البشر.. إنه خلقه واصطفاه لهذه المهمة لا غير.. مهمة التبليغ عنه، والدعوة إليه، وغرس رايته في الأرض.

فإذا انتهى دوره ذاك، صعد على الفور إلى الرفيق الأعلى، حيث هناك وطنه الحق ومقامه الأبدي .

ولكن، لماذا والوحي ينبئه بقرب رحيله، يدعوه لأن يسبّح ويستغفر..؟

"فسبّح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابًا" .

إنه برهان جديد، ولعله سيد البراهين على أن (محمدًا) عليه الصلاة والسلام كان رسول الله، يتلقى عنه، ويدعو إليه بإذنه..

فلو أنه كان يعمل في نطاق شخصي، وتدفعه حوافز ذاتية مهما يكن

نبلها، ثم أحس بدنو أجله وأراد أن يعبّر عن إحساسه بكلمات ينعى بها نفسه، لما جاءت على هذا النحو أبدًا.. دعوة إلى الاستغفار والمتاب.

لكن، لأنه رسول الله حقًا - ولأن القرآن وحى الله حقًا جاء نعى الرسول على هذه الصورة الفريدة والمجيدة.

فالرسول مهما تكن منزلته ومقامه، عبد الله.. بل إن حظه من العبودية لله يزداد تبعًا لازدياد رفعته كرسول.. وهو كلما توقل صاعداً فى درجات الكمال ازداد تخشعه وتضرعه لربه، وبلغ إحساسه بالعبودية له أعلى ذراه..

وهو بهذه المثابة لا يملك لنفسه فى رحلة العودة إلى ربه إلا أن يسبحه كثيراً، ويقدسه ويحمده، وإلا أن يستغفره من ذنبه حتى لو لم يكن له ذنب..!!

ذلك أن الاستغناء عن الاستغفار يعنى الزهو بالطاعة وبالكمال، أما اللهج بالاستغفار فيعنى الإقرار بنعمة الله، والإقرار بالعجز عن شكرها.. وفى هذا آية على صدق العبودية لله، كما هو آية على رفعة المقام عند الله..!!

من أجل هذا، رأيناه - عليه السلام - على الرغم من تفانيه الدائب فى عبادة ربه، يزداد بعد نزول هذه الآيات إمعانًا فى النسك وإقبالاً على التعبّد..

يقول أبو هريرة رضى الله عنه:

"اجتهد النبى ﷺ بعد نزولها، حتى تورّمت قدماه، ونحل جسمه، وقلَّ تبسمه، وكثر بكاؤه"..

هذه أولى نفحات "يوم الوداع" نلتقى بها فى بواكير صباحه.

والآن، فإلى ذلك الجمع المشهود، لنسمع ونرى..

***

هنا فوق المنبسط الفسيح من "منى" وقف مائة وعشرون ألفًا من المسلمين.. وقفوا حافِّين حول رسولهم الكريم الذى تهيأ ليلقى عليهم من حديثه المضىء بعض النصائح والكلمات.

كان الفرح والبشر والأمل والثقة تشيع فى الزمان والمكان، وتملأ الأنفس حيوية وانبهارًا..

لم يكونوا يعلمون أن الرسول نُعى إلى نفسه.. فحتى الذين تُليت عليهم سورة "النصر" وسمعوها لم يفهموا منها ما فهمه أبو بكر، وعمر، والعباس، رضى الله عنهم وعن الصحابة أجمعين..

لم يكونوا يدرون إلا أنهم فى مهرجان عظيم، يحتفلون فيه بانتهاء مناسك الحج، كما ينعمون بنصر الله وفضله. فهؤلاء المائة والعشرون ألفًا من المسلمين، إنما يمثلون هنا الجزيرة العربية كلها بكل قبائلها ومواطنيها.

أجل.. فما عاد هناك شِرْك، ولا مشركون. إنما هو الإسلام فى كل قبيلة.. وفى كل دار..!!

وهَمَّ الرسول بالحديث، بينما وقف قريبًا منه بعض أصحابه ليبلّغوا عنه، حتى تصل كلماته إلى جميع المسلمين..

لم يُعدّ الرسول خطابه، ولم ينمقه حتى يجىء فى الصورة المحسوبة لخطبة وداع ـ وأىّ وداع !!

بل لعلّه لم يكن فى حسبانه أن يقف اليوم خطيبًا؛ فقد جاءه ما

يشغله ـ التهيؤ للقاء ربه الأعلى.

وكعادته دائمًا فى إيثاره البساطة، ونبذه التكلف والتعاظم، وقف يذكر أصحابه، ويزوّدهم ببعض وصاياه، وتحدّث، فجمع وأوعى..

واشرأبت الأعناق، وأصغت القلوب، وأرهفت العيون أحداقها..

وأشرق فى الأفق الساكن صوت الرسول:

"أيها الناس..

اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى. لعَلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى هذا الموقف أبدًا"..

كلمات لم يكونوا يتوقعونها.. وبداية لم يهيئوا أنفسهم لملاقاتها..

لقد اختطفتهم المفاجأة من جوّ التهلل والحبور الذى كان يغمرهم..

ماذا..؟؟ لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا..؟ أى نذير تَفْدَحُنا به يا رسول الله، وأنت البُر بنا والرحيم..؟؟

ولم تستطع شهقاتهم الحزينة أن ترتفع وتُولول؛ فقد علّمهم القرآن من قبل ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى، هنالك تحولت كل إرادة التعبير عن الأسى والفجيعة إلى العيون، فهى التى تستطيع أن تصرخ دون أن يكون لها صوت مسموع.. وهكذا آلت دموع الجمع الحاشد فى فيضان عظيم..!!

وواصل الرسول حديثه:

"أيها الناس..

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم،

كحرمة يومكم هذا..

وكحرمة شهركم هذا..

"وإنكم ستلقون ربكم..
فيسألكم عن أعمالكم..
وقد بلّغت .
"فمن كانت عنده أمانة..
فليؤدها إلى من ائتمنه عليها" ..

هكذا، وفى خطاب الوداع يركز فى إيجاز حاسم على أكثر ما يقدس الناس من حقوق: حق الحياة.. وحق الجهد.. فعصم الدماء، وعصم الأموال، لا يُنال من ذلك شىء إلا بحقه المشروع. وفى نفس اللحظة ربط - كعادته - عليه السلام بين العمل الإنسانى والوازع الإلهى ليراقب الناس ربهم ويتقوه فى رعاية ما يوصى به ويدعو إليه..
"ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم" ..

***

ثم هتف برفض الربا كله.. ورفض الثأر كله.. فكلاهما الربا.. والثأر، عُدوان على حق الحياة وحق المال..

قال عليه السلام، وهو يستأنف خطبته:
"وإن كل ربًا موضوع.. لكم رءوس أموالكم،
لا تظلمون ولا تُظلمون.. قضى الله أنه لا ربًا..
وأول ربًا أضع، ربا العباس بن عبد المطلب.
"وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع.. وأول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب" .

هكذا قدم القدوة من آل بيته.. فربا العباس عمه الذى كان له قبل أن يحرمه الإسلام، يكون أول ربا يلغيه الرسول ويبطله.. ودم ابن ربيعة

بن الحارث ـ ابن عمه ـ يكون أول دم يلغى به عادة الثأر والانتقام..

وتتألق فى الأفق العريض الواسع أمام رسول الله نعمة الله المتمثلة فى كنس الشرك من الأرض التى كانت وطنه ودنياه.. لكنه يعلم أن كل نصر عظيم يخلق تبعات جديدة.. فإذا كان الشيطان قد خسر معركة الوثنية فإنه سيتشبث بمحاولات الإغواء والإغراء فى مجال الذنوب والشهوات.

وكان لابد للرسول الذى طالما جَلَّى لأصحابه خطر الخطيئة، أن يُذكّر به فى يوم الوداع، وأن يحذر منه مهما يكن صغيراً..

"أيها الناس..

"إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم".

***

ولما كان الناس يحيون فى الزمان.. والزمان شهور وأعوام وأيام.. ولما كان الإسلام قد جعل من بعض الشهور وعاء وميقاتًا لفرائض معينة: فرمضان مثلاً للصوم.. وذو الحجة للحج.. وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب أشهر حُرُم، لا يحل فيها غزو ولا قتال، كان لابد من التركيز فى هذا اليوم على إبطال عادة "النسىء".

والنسىء محاولة كان العرب فى الجاهلية يعبثون بها فى الترتيب الزمنى للشهور.. فإذا جاء "المحرم" مثلاً وهم يريدون القتال، اعتبروا المحرم "صفراً".. كذلك كانوا يستخدمون الكبس فى تقويمهم، فيحسبون السنة اثنى عشر شهراً، وخمسة عشر يومًا، فكانت استدارة الشهور الناجمة عن هذه الزيادة، تجعل الحج يأتى فى غير ميقاته.. بل

تجعله ينتقل بين جميع الشهور على تعاقب السنين..

وها هوذا رسول الله يعطى للمواقيت قرارها واستقرارها،

"أيها الناس..

"إنما النسيء زيادة فى الكفر. يُضَلُّ به الذى كفروا، يُحلُّونه عامًا، ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلّوا ما حرَّم الله، ويحرموا ما أحل الله..

"وإن الزمان قد استدار كهيئتة يوم خلق الله السماوات والأرض.. وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم"..

***

ثم يفيض برًا ورحمة وحنانًا وهو يقول:

".. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عَوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا.. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله.. واستحللتموهن بكلمات الله"..!!

ويتراءى الوقت أمام الرسول قصيرًا، بينما مجال الحديث واسع وطويل. فيلخص كل نُصحه وعظِته فى هذه العبارة:

".. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدًا..

"كتاب الله .. وسنة نبيِّه".

أجل، القرآن، والسنة.. حصيلة ثلاث وعشرين سنة عاشها على الأرض رسول السماء.. فيهما كل الهدى، وكل العافية، وكل النور.

وكان المتوقع أن تكون هذه العبارة مسك الختام.. بيد أن موضوع العلاقات الإنسانية بين المسلمين والحقوق المكفولة لكل فرد منهم،

يعود فيلحّ عليه من جديد. وهكذا يخصه بالنظرة الأخيرة:

"تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم.. وأن
المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه
إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه.. فلا
تظلمن أنفسكم".

ثم احتوى الجموع الحاشدة بعينيه الثاقبتين، ونادى:

"اللهم. هل بلّغت؟؟".

وارتجّ السهل العريش بالأصوات العالية؛ تنبعث من حناجر مائة وعشرين ألفًا، تجيب الرسول:

"اللهم. نعم"..

***

ومضى على ذلك اليوم المجيد ألف وأربعمائة عام..

وستمر ألف وأربعمائة عام أخرى..

ستمر آلاف الأعوام، ما أذن الله لهذه الأرض أن تبقى وتدوم.

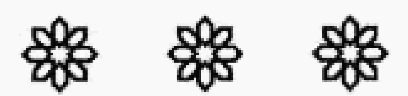
وخلال ذلك الزمان ـ ما بقى الزمان ـ سيظل رشد الإنسان وضمير الحياة ينبضان بسؤال الرسول:

"هل بلّغت"..؟؟

وسيظل كل شىء فى دنيا الناس يُؤوِّب، ويشهد، ويجيب:

"اللهم نعم".

"اللهم نعم".



الفهرس